الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني

بين عمق الدلالة ودفع التوهم ودقائق الإعجاز

دراسة استقرائية تحليلية تطبيقية

إعداد الدكتور

علي عبد الحميد عيسى عثمان

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

جامعة الأزهر – مصر

الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني
بين عمق الدلالة ودفع التوهم ودقائق الإعجاز
« دراسة استقرائية تحليلية تطبيقية »

علي عبد الحميد عيسى عثمان
قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم، كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الجامعي: Aliosman.@azar.edu.eg

الملخص:

للاحتراس القرآني دور بياني بديع في دقة الكلمة، وائتلاف الألفاظ وتآخيها، ووقوعها موقعها، حتى إن القارئ ليشعر أن الكلمات من وادٍ واحدٍ، كما يحقق التوافق في المعاني، والتوازن، وجمال التعبير بلا تكلف، إنه أداة بيانية بديعة في دقة التصوير الذي هو أعلى مراتب البيان، لقد حقق الاحتراس القرآني ذروة الإعجاز في ألفاظه، ومعانيه، وفواصله، وتراكيبه، مع ما فيه من اعتدال نسق الكلام، وحسن الموقع، والجرس الموسيقي، ولذا كان جديرًا بدراسة مستقلة تكشف معالمه، وتظهر أوجه إعجازه.

وتهدف الدراسة إلى:

- بيان جهود المفسرين واهتمامهم بالاحتراس القرآني، ودورهم البالغ في استخدامه للكشف عن أنواع من الإعجاز لا تُحصى كثرةً.
- الكشف عن أوجه الإعجاز البياني التي تندرج تحت هذا الفن والتي تمثل إعجازًا تلو إعجاز.
- الكشف عن العلوم التي يستفيدها المفسر بالوقوف على ظاهرة الاحتراس وأوجه إعجازه، وأهمها: رفع الاشتراك عن المعنى، والجمع بين الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض، ودفع التناقض عن المعنى، وفهم المعنى في ضوء المناسبات، والاحتراس كأداة لترجيح المعاني، مع إزالة ما قد يلحق بها من إشكال أو توهم.

وكان من نتائج الدراسة: الكشف عن أوجه من الإعجاز البياني التي لم تتلها دراسة سابقة وأهمها الإعجاز التركيبي، والاحتراس بتغيير أوجه الإعراب ودقائق إعجازه، والإعجاز البياني في الاحتراس في فواصل آي الذكر الحكيم، والوقوف على علوم وفنون ما كان للمفسر أن يقف عليها أو يصل إليها إلا بالوقوف على أوجه الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني كوجهٍ دقيقٍ من الإعجاز القرآني الذي لا ينتهي عطاؤه، ولا ينقطع مدده.

الكلمات المفتاحية: توهم ، دقائق ، احتراس ، دفع ، بياني ، إعجاز ، قرآني.

The graphic miracle in the Qur'anic guarding and repelling illusion and the minutes of the miracle "Applied Analytical Inductive Study"

Ali Abd El- Hameed Eisa Osman
Department of Interpretation and Sciences of the Holy Qur'an, Al-Azhar For Girls College,10th of Ramadan, Al – Azhar University, Egypt
University Mail: Aliosman.@azhar.edu.eg

Abstract

The Qur'anic caution has a wonderful rhetorical role in the accuracy of the word, the combination of words, its brotherhood, its occurrence and its location. The reader will feel that the words are from one place. It also achieves harmony in meanings, balance and beauty of expression without pretension. It is also an excellent graphic tool in the accuracy of the imagination, which is the highest echelon of the statement. The Qur'anic caution has achieved the pinnacle of the miraculousness in its words, meanings, breaks and structures, along with the moderation of speech, good location and musical timbre.

The study aims to:

- Explanation of the efforts of the commentators and their interest in the Qur'anic caution and their great role in using it to reveal countless kinds of miracles.
-Disclosure of the graphic miracles that fall under this science and that represent a miracle after a miracle.
-Revealing the sciences that the interpreter benefits from by examining the phenomenon of caution and its miraculous aspects. The most important of them: removing the association from the meaning, combining the verses that seem to illusion the contradiction, pushing the contradiction away from the meaning, understanding the meaning in light of the occasions, and caution as a tool for weighing the meanings while removing the confusion or illusion that may be attached to it.

Among the results of the study: the disclosure of aspects of the graphic miraculousness that were not obtained in a previous study, the most important of which are the structural miraculousness and caution by changing the expressions and the subtleties of its miraculousness and the graphic miraculousness of caution

in the breaks of the verses of the Holy Qur'an and standing on the sciences that the interpreter could not stand on or reach them except by standing on the aspects of the rhetorical miracles in the Qur'anic guarding as a precise aspect of the Qur'anic miracles whose giving does not end and its duration is not interrupted.

Key words: illusion , accuracy , caution , prompting , rhetoric , miracles , Quranic.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ رحمة الله للعالمين، أما بعد:

فإن هذا البحث يمثل دراسة للوقوف على أوجه الإعجاز البياني في أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم، وأثره على المعنى، وبيان أوجه الإعجاز البياني فيه.

أهداف البحث:

١- إظهار أوجه الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني، فإذا كانت عادة العرب الاحتياط في كلامها والاحتراس منه، فإن الاحتراس القرآني جمع بين دقة النظم، ودقائق الإعجاز، والتفنن في التعبير عنه بصور مختلفة وتراكيب متفاوتة، وهو ما يهدف البحث لإظهاره والوقوف على أوجه إعجازه سواء في عمق الدلالة، أم دفع التوهم عن المعنى، أم فواصله، أم إعرابه.

٢-الوقوف على آراء المفسرين قديمًا وحديثًا في الاحتراس القرآني وأهميته في تفسير آي الذكر الحكيم.

٣-فتح آفاق جديدة للإعجاز البياني من خلال الاحتراس القرآني بدراسة استقرائية تحليلية تطبيقية.

منهج البحث: استقرائي، تحليلي، تطبيقي.

الدراسات السابقة: دراسة جديدة في بابها، فما كُتب عن الاحتراس إنما هي كتابات تدور حول التعريف به، والاستشهاد عليه بشواهد من آي الذكر الحكيم، وهي دراسات بلاغية كلها، وهذه الدراسات هي:

١- الاحتراس في ضوء القرآن الكريم، دراسة بلاغية تطبيقية، د. قاسم إسماعيل خليفة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بالقاهرة ١٤١٨هـ، العدد السادس عشر.

٢- أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم صوره وبلاغته، ماجستير في البلاغة، إعداد: جواهر بنت راشد الرشود، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، لعام ١٤٢٩هـ.

٣- الاحتراس في القرآن الكريم: دراسة بلاغية، أ.د. أحمد فتحي رمضان، بحث منشور في كلية آداب الرافدين -جامعة الموصل- العراق، العدد ٥٤ لسنة ١٤٣٠هـ.

٤- الاحتراس في البلاغة العربية، دراسة في تحرير المصطلح، د. عزمي فرحات عبدالبديع، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة -جامعة الأزهر، المجلد الرابع، العدد ٢٩، مجلة محكمة، لسنة ١٤٣٢هـ.

٥- الاحتراس في القرآن الكريم، د. حنان قاسم العنزي، دار الصميعي، سنة النشر ١٤٣٤هـ.

٦- فهم المعنى بين الاحتراس والاعتراض، محمد عبدالله احميدة، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الأول، العدد العاشر، لسنة ١٤٣٩هـ.

أما دراستي: فهي دراسة تفسيرية لهذا الفن، وبيان مدى عناية المفسرين به، ومدى أهميته للمفسر خاصة، وكيف كان من أهم أنواع الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فقد جمع بصيغه المختلفة في القرآن الكريم، وتراكيبه المتنوعة، بين إفهام المعنى المراد، بالحفاظ على المعنى والاحتياط له، وإزاحة ما قد يتوهم خطأً، بعمق في الدلالة، وإعجاز في البيان.

فهي دراسة جديدة في فكرتها وخطتها وبنيانها، مع ما لها من أهمية كبرى لطالب العلم عامة، والمتخصص في التفسير وعلومه خاصة.

مشكلات البحث:

- الصعوبة في تحرير المصطلح وتميزه عن مرادفاته والمصطلحات المختلطة به وما أكثرها.

- صعوبة وضع منهج عام للاهتمام بهذا الفن عند المفسرين، ومدى الاستفادة منه في تفاسيرهم، لأن هذا يحتاج إلى مراجعة جل التفاسير وتحليلها.
- الصعوبة البالغة في تتبع مواطن الاحتراس عند المفسرين، لاسيما والكثير منها يمثل إشارات لهم من طرف خفي.
- صعوبة تقسيم أوجه الإعجاز البياني في الاحتراس على مباحث مستقلة، ووضع شواهد تطبيقية تتفق مع كل مبحث.

الجديد في البحث:

إنه – بفضل الله – يمثل دراسة جديدة تعنى بإظهار أوجه الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني، ومدى أهمية هذا الفن في علم التفسير، وأنه لا غنى للمفسر عنه، وأن اعتناء المفسرين به لا يشترط فيه التصريح، بل ربما أشاروا إلى هدفه والمقصود منه، أو أشاروا إليه بعبارات متنوعة، فأدت المقصود، وأفادت المطلوب.

وهي – كذلك – دراسة جديدة لأحد الأساليب البلاغية بطريقة تفسيرية.

خطة البحث: يشتمل هذا البحث على مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة وتشتمل على:

* أهداف البحث. * منهج البحث. * الدراسات السابقة.
* مشكلات البحث. * الجديد في البحث. * خطة البحث.

التمهيد: ويشتمل على:

أولاً: تحرير المصطلحات.

ثانيًا: الاحتراس عند المفسرين بين المقصد والمصطلح والمرادف.

وأما المبحث الأول فعنوانه: الاحتراس وعمق الدلالة.

وأما المبحث الثاني فعنوانه: الاحتراس ودفع التوهم.

والمبحث الثالث عنوانه: الاحتراس في الفواصل القرآنية.

والمبحث الرابع عنوانه: الاحتراس بتغيير حركة الإعراب.

وقد يشتمل المبحث على مطالب حسب مقتضيات البحث.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث، وتوصياته.

ثم فهرس بأهم المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهـيد

أولاً: تحرير المصطلحات:

قبل الشروع في تناول مباحث هذه الدراسة ومحاورها لابد أولاً من تحرير المصطلحات، لأنها ضرورة للفهم الصحيح، فالمصطلحات وضعت لتحديد المعاني وضبطها، «ولا نزاع في أن لكل قوم من العلماء اصطلاحات مخصوصة يستعملونها في معانٍ مخصوصة»[١] ومن ثمَّ فالحاجة ماسَّة لتحرير المصطلحات لضبط الفهم، لأن وضع المصطلح في غير ما وضع له جهل بمقتضى المقام.

فينبغي لمن تكلم في فن من الفنون أن يورد الألفاظ المتعارفة فيه مستعملاً لها في معانيها المعروفة عند أربابه، ومخالف ذلك إما جاهل بمقتضى المقام، أو قاصد للإبهام أو الإيهام[٢].

ولا يرد على هذا التأصيل بقاعدة «**لا مشاحة في الاصطلاح**» لأن المعنى أنه لا مشاحة في الاصطلاح شريطة أن يكون المعنى معروفًا عند أهل الفن، ولذلك يقولون: «لا مشاحة في الألفاظ بعد معرفة المعاني»[٣].

فأولى المهمات ضبط المصطلحات وتحديدها احترازًا من الاضطراب والتداخل.

وتحرير مصطلح الاحتراس وضبط معاقده، وتمييزه عن المصطلحات المرادفة له أو القريبة منه أو التي ربما تختلط معه، أسير فيه من خلال التمييز بين المصطلحات التالية:

- **الاحتراس والاحتراز والاحتياط:**

أمَّا الاحتراس: لغة: افتعال من احترس منه إذا تحرز، وتحرست من فلان، واحترست منه بمعنى أي: تحفظت، فهو من باب حرس الشيء إذا حفظه[٤].

---

(١) المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر الرازي،٦٤٧/٤،الناشر:جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه.

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر الجزائري الدمشقي، ٧٨/١، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه.

(٣) المستصفى، أبو حامد الغزالي، ٥٠/١، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣ه.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، ٤٨/٦، مادة "حرس"، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

واصطلاحًا: أطلقه البلاغيون على مظهر من مظاهر الإطناب، وعرفوه بأنه: «أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه»[١].

فهو عندهم يحمل معنى الحماية والتعقب للكلام، يزيح ما يطرأ على المعنى من توهم، ويدفع ما قد يتطرق إليه من احتمال غير مقصود.

أمَّا الاحتراز: لغة: فيرى ابن فارس (٣٩٥هـ) أن الحاء والراء والزاي أصل واحد، وهو الحِفْظ والتَّحفظ، يقال: حرزته واحترز: أي تحفظ[٢].

والحِرْز: الموضع الحصين[٣]، وحرزَه حَرْزًا: حفظه وجعله في حرز[٤].

فالمادة تدل على الحفظ والصون والتوقي.

واصطلاحًا: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه[٥].

وسماه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) بالاحتياط، فقال: "واعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له"[٦].

أقول: الألفاظ الثلاثة كلها نظائر لمعنى واحد عند البلاغيين للدلالة على حفظ الكلام وصونه ودفع الوهم عنه.

- **الاحتراس والتكميل:** هما بمعنى واحد عند علماء المعاني من المتقدمين، فعرَّفوا التكميل بما عرَّفوا به الاحتراس، فالتكميل سمي بذلك لتكميله المعنى بدفع إيهام خلاف المقصود منه، والاحتراس سمي بذلك لاحتراسه بحفظ المعنى ووقاية له من توهم خلاف المقصود[٧].

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني الخطيب، ص٢٩٩، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣٠/٢، مادة "حرز"، الناشر: اتحاد الكتاب العربي، ١٤٢٣ه.
(٣) الصحاح في اللغة، الجوهري، ١٢٣/١، "حرز"، الناشر: دار العلم للملايين.
(٤) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ٣٧٠٦/١، "حرز"، الناشر: دار الهداية.
(٥) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، ص٢٤٥، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م.
(٦) الخصائص، ابن جني، ١٠١/٣، الناشر: دار الهدى، الطبعة الثانية.
(٧) شروح التلخيص، القزويني وآخرون، ٢٣١/٢، الناشر: دار الكتب العلمية.

أمَّا المحققون من المتأخرين فيفرقون بينهما:

فالتكميل: "أن يأتي المتكلم بمعنى تام في فن من الفنون، فيرى الاقتصار عليه ناقصًا، فيكمله بمعنى آخر، في غير ذلك الفصل الذي أتى به أولاً"(١).

ومنه قول الفرزدق (ت ١١٠هـ):

قَبَّحَ الإِلَهُ بَنِي كُلَيْبٍ إِنَّهُمْ ... لَا يغدرُونَ وَلَا يَفُونَ لِجَارِ (٢)

فإنه لما هجا القوم بعدم الغدر لضعفهم وقلتهم، لم يجد هذا الوصف كافيًا، فأضاف إليه مكملاً للمعنى بقوله: "ولا يفون لجار".

الاحتراس والتتميم: إذا كان الاحتراس لحفظ المعنى من توهم خلاف المقصود منه، فإن التتميم: هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود، بفضلة كمفعول أو حال ونحوهما لنكتة بلاغية يستدعيها المقام، كالمبالغة في المدح في قوله تعالى: **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}**(٣)، فإن الضمير في قوله: **{عَلَى حُبِّهِ}** إما أن يكون للطعام، على معنى أنهم يطعمون الطعام مع حبهم له وحاجتهم الشديدة إليه، فيكون قوله: **{عَلَى حُبِّهِ}** تتميم ونكتته المبالغة في مدحهم بالكرم.

وإما أن يكون الضمير لله –تعالى، على معنى أنهم يطعمون الطعام على حب الله، وعلى هذا الاحتمال لا يكون في الآية تتميم، لأن الفضلة حينئذٍ تكون لتأدية أصل المراد(٤).

- **الاحتراس والتكميل والتتميم:** حاصله: أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، فأتى التكميل بزيادة يكمل بها حسنه، إما بفن زائد أو معنى.

---

(١) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، ١٨٥/٥، الناشر: مطبعة النعمان، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م، الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية، د. محمود شاكر إبراهيم، ص٥١، الناشر: دار الفكر العربي.

(٢) ديوان الفرزدق، ٣٦٠/١، الناشر: دار صادر، بيروت.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٤) شروح التلخيص، ٣٥/٣-٣٧، بتصرف.

والتتميم: يأتي لتتميم نقص المعنى، والاحتراس: لاحتمال دَخَلٍ على المعنى[١].

الاحتراس والانفصال:

الاحتراس: ما يفطن له وقت العمل فاحترس منه.

الانفصال: ما لم يفطن له حتى يدخل عليه، فيأتي بجملة من الكلام ينفصل به عنه ذلك الدَّخَل[٢].

ومنه قوله –تعالى–: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}**[٣]، فظاهر الآية فيها دخل، لأن الطائر يطير بجناحيه، فيكون ذلك الإخبار عريًّا عن الفائدة، والانفصال عن ذلك أن يقال: إنه –سبحانه– أراد أن يدمج في هذا الخبر النهي عن قتل الحيوان الذي لا يؤذي عبثًا، بدليل قوله –تعالى–: **{إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}** ففي مساواته بين ذلك وبين المكلفين إشارة إلى أن الإنسان يدان بما يفعله مع كل جسم قابل للحياة، وفي دواب الأرض ما لا حرج على قاتله كالذباب والبعوض والنمل، فأراد –سبحانه– تبيين هذا الصنف من هذا النوع، فخصص هذا الصنف بصفة مميزة له **{يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** لأنه لا يطلق الجناح حقيقة إلا على العضو الذي ليس له ريش وقصب وأباهر[٤].

وليستدل بكون هذا الصنف من بين جميع أصناف الطائر هو المقصود بالنهي عن قتله وتعذيبه، لتخرج الحشرات من ذلك بتمييز الصنف المشار إليه منه.

فحصل بمجموع ذلك الانفصال عن الدخل المتوجه على ظاهر الآية، والله أعلم[٥].

---

(١) تحرير التحبير، ص٢٤٥.
(٢) السابق، ص٢٤٦.
(٣) سورة الأنعام: من الآية ٣٨.
(٤) قصَبُ الحيوان: عظمه. ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٢٦/٣، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ه، والأباهر جمع أبهر وهو عرق في الظهر، وقيل عرق منشؤه الرأس ويمتد إلى القدم وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن. النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير، ٢٠/١، "أبهر"، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.
(٥) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، ١٠٥/٣-١٠٦، بتصرف واختصار، الناشر: دار ابن كثير، ١٤١٢هـ.

- **التكميل والاعتراض:**

الاعتراض: هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة كالتنزيه والتعظيم في قوله –تعالى–: **{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}**[١][٢].

وبينهما عموم وخصوص: فيجتمعان في الصور المشمولة للاعتراض لدفع الإيهام.

وينفرد الاعتراض بما يكون من الجمل لغير دفع الإيهام، وينفرد التكميل بغير الجملة وبالجملة التي لها محل[٣].

ويقف الباحث في نهاية هذا المطلب مع نتائج أهمها:

- أن الاحتراز أقرب المعاني لمصطلح الاحتراس.
- التداخل التام بين ثلاثة مصطلحات: الاحتراس والتكميل والتتميم، حتى قال عبدالباقي اليماني (ت ٧٤٣هـ): "لا يكاد البديعيون يحررون ثلاثة أشياء: التتميم، والتكميل، والاحتراس، لتداخلها"[٤].
- أن عدم تحرير المصطلحات جهل بمقتضى الحال، وقصد للإبهام والإيهام، ولذلك كان لزامًا أن تحرر في بداية البحث دفعًا للاختلاط، وتحديدًا للمقصود.

ثانيًا: الاحتراس عند المفسرين بين المقصد والمصطلح والمرادف:

إن مفهوم الاحتراس عند البلاغيين أسبق منه عند المفسرين[٥]، ولعلَّ أول من أشار إليه كمصطلح علمي قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) وسماه تتميمًا واحتراسًا[٦].

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٧.
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ٣/٧، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة.
(٣) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ابن عرفة الدسوقي، ٢٤٨/٣، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
(٤) عقود الجمان في علم المعاني والبيان، وهو نظم لكتاب "تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني، السيوطي، ص٧٥، الناشر: دار الإمام مسلم، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
(٥) تحرير التحبير، ص٢٤٥.
(٦) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، ص٨٨، الناشر: دار الكتب العلمية.

أمَّا عند المفسرين: فأستطيع تقسيم اهتمامهم بالاحتراس إلى محاور:

أولها: إيراد مقصد الاحتراس دون التصريح به: وهو أكثرها شيوعًا عند المفسرين، وسبب ذلك أمور:

أولها: أن اعتناء المفسر قائم على إصابة المعنى دون الاهتمام بالمصطلحات.

ثانيها: أن الاعتناء بالمصطلح لمن اهتم بالبلاغة القرآنية في تفسيره دون غيره.

ثالثها: أنه في المراحل الزمنية المبكرة لم يكن مصطلح الاحتراس قائمًا بذاته، ومن ثمَّ اهتم أغلب المفسرين بمقصده، وأغراضه، والهدف منه، دون لفظه، فيعبرون عنه بعبارات: "لئلا يتوهم"، "لدفع احتمال"، "لئلا يلبس"، "مخافة اللبس"، إلى غير ذلك من العبارات الدالة على غرض الاحتراس دون لفظه، وهي السمة الغالبة على كثير من المفسرين: كالطبري (ت ٣١٠هـ)[١]، ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)[٢]، الرازي (ت ٦٠٦هـ)[٣]، البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)[٤]، ابن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ)[٥].

الإشارات الأولى لمصطلح الاحتراس عند المفسرين:

أول من أشار إلى مقصد الاحتراس هو العلامة الطبري، ومن ذلك: ما أورده في تفسيره لقوله –تعالى–: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ}**[٦] إذ يقول: "وكان الكلام لو أطلق في ذلك بغير تضمين الحولين بالكمال.. محتملًا أن يكون معنيًا به حول وبعض آخر، فنفى اللبس عن سامعيه بقوله: **{كاملين}**"[٧].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ٤٢٤/١، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ٥٨/٢، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/٤، الناشر: دار الفكر، ١٤٠١ه.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٢٤٠/١، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ١٥٦/١، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
(٦) سورة البقرة: من الآية ٢٣٣.
(٧) تفسير الطبري، ٢٣/٥.

فعبر شيخ المفسرين عن مقصد الاحتراس بقوله: "**فنفى اللبس**"، ثم تنوعت عبارات المفسرين عن غرض الاحتراس بعبارات متنوعة.

وأشار إليه الإمام الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) بعبارة: "**لتوهم متوهم**"(١).

وأشار إليه الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) بعبارة: "**لئلا يتوهم متوهم**"(٢)، وبقوله: "**عسى يتوهم**"(٣)، وكذلك الإمام ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)(٤).

وأشار إليه الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) بقوله: "**لئلا يتوهم متوهم**"(٥)، وبقوله: "**لئلا يتوهم**"(٦).

وهكذا كان الهدف عند المفسرين –لا سيما في القرون الأولى– الوقوف على مقصد الاحتراس دون المصطلح، وذلك لأن صناعة المعنى في التفسير، أبرز القضايا، وأشدها حضورًا بين المفسرين، واستنباط المعنى من النص يتقيد بالأصول والقواعد العلمية والبلاغية، وكل ما له صلة بالتفسير وقواعده دون الالتزام بذكر المصطلحات أنفسها، فذكر المقصد منه، ذكر له وزيادة.

ثانيها: التصريح بالمصطلح ومرادفاته:

إن أول من صرح بمصطلح الاحتراس من المفسرين هو العلامة القرطبي (ت ٦٧١هـ)(٧)، ثم تبعه الزركشي (ت ٧٩٤)(٨)، وابن عرفة المالكي (ت ٨٠٣هـ)(٩).

(١) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢٥٧/٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢ه.
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ٤٦٣/٢، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ه.
(٣) السابق، ٣٣٩/٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ٧٧/١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ه.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٥٢/٤، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ه.
(٦) السابق، ١٥٣/٨.
(٧) ينظر: تفسير القرطبي، ٣٤٩/٥، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ه.
(٨) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٦٥/٣، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
(٩) تفسير ابن عرفة، لابن عرفة، ٢٨١/٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

وابن عادل الحنبلي (ت ٨٨٠هـ)[١]، والبقاعي (ت ٨٨٥هـ) في نظم الدرر[٢]، والشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)[٣]، والألوسي (١٢٧٠هـ)[٤]، والطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)[٥].

التسمية بأحد نظائره وهو الاحتراز:

ومنهم البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، فقال في قوله –تعالى–: **{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}**[٦]: "احترازًا عن المُتبنَّى"[٧].

وابن جزي الكلبي، فقد قال في تفسير قوله تعالى: **{اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}**[٨]: "تخصيص تحرز به ممن لم يهاجر كالطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح"[٩]، وأبو حيان (ت ٧٤٥هـ) فقد كان يقول: "فاحترز بقوله.. "[١٠].

التسمية بالمرادف: كالتتميم والاحتياط والتكميل:

كالعلامة القرطبي فكان يقول: ".. وهذا عندهم يسمى التتميم، ويسمى أيضًا الاحتراس والاحتياط"[١١].

والسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) فقد كان يذكر الاحتراس ونظائره التتميم والاحتياط، وعرفه بأنه: "سمي عند أهل البيان الاحتراس: وهو أن يؤتى بشيء يرفع به توهم من يتوهم غير المراد"[١٢].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٢١٩/٣، دار الكتب العلمية.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٣٨٥/٣، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٢٥/٣، ٣٤٤/٥، الناشر: دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ٤٩/٩، ١٦٧/١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٧/١، ١٧٩/١، ٤٦٠/١٢، الناشر: الدار التونسية للنشر.
(٦) سورة النساء: من الآية ٢٣.
(٧) أنوار التنزيل، ٧٦/٥.
(٨) سورة الأحزاب: من الآية ٥٠.
(٩) التسهيل لعلوم التنزيل، ٢٤١/٣.
(١٠) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٣٢٠/٣، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ه.
(١١) تفسير القرطبي، ٣٤٩/٥.
(١٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ٤١٦/٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه.

والإمام أبو السعود (ت ٩٨٢هـ) فقد كان يذكر الاحتراس بمرادفاته: الاحتراز، والتكميل، والاحتياط"[١].

ثالثها: أشهر المفسرين اعتناءً بالاحتراس القرآني:

لا يخلو تفسير من اعتناء بالاحتراس لما له من أثر بالغ على فهم المعنى المراد، وإزاحة ما قد يتوهم، ولكن أعلى المفسرين اعتناءً به إمامان: الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، والطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) حتى إن تفسيريهما يمثلان موسوعة لمصطلح الاحتراس القرآني.

وسبب ذلك: اعتناءهما البالغ بالبلاغة القرآنية، فدقائق التفسير عندهما عن طريق علم البلاغة، ومن ثم كان لهما النصيب الأوفى بالاهتمام بفن الاحتراس القرآني.

ويستنتج من طيات هذا العرض:

- أن الاحتراس والاحتراز والاحتياط والتتميم والتكميل بمعنى واحد عند المفسرين.
- إذا كان البلاغيون حريصين على الاهتمام بالمصطلح، فإن الأهم عند المفسرين هو المقصود والغرض منه، لاهتمامهم بالمعنى، ولأن التطبيق عندم أهم من المصطلحات، فالتطبيق فيه المصطلح وزيادة.
- لم يخل تفسير من ذكر الاحتراس القرآني أو مقصده وإنما يتفاوتون في ذلك قلة وكثرة.
- من غلب عليه الاهتمام بالاحتراس القرآني من المفسرين هم المهتمون بالبلاغة القرآنية وتوظيفها للوقوف على الخصائص التعبيرية للآيات القرآنية، واستخلاص معانيها.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، ٩/١٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤١١هـ.

المبحث الأول

الاحتراس وعمق الدلالة

توطئة: لقد بلغ القرآن الكريم الذروة في كل إعجاز، فهو معجز في لفظه، ومعناه، وفصاحته، وأخباره، وكل ما جاء به، ولكن أعظم وجوه الإعجاز هو البياني، وذلك لأنه ينتظم القرآن الكريم كله، سوره على اختلافها طولاً وقصرًا، أمَّا الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك، فوجوه الإعجاز قد توجد في بعض الآيات دون غيرها، أما الإعجاز البياني فهو عام في القرآن الكريم كله، لا تخلو منه آية ولا سورة، ولذلك كان أتمها وأهم وجوهها(١).

فما من آية من آي الذكر الحكيم إلا وترى لها أسلوبًا فصيحًا بليغًا لا تألفه العرب، لاشتمالها على نظم بليغ في حروفها ومفرداتها وجملها وتراكيبها، فأعجزهم القرآن عن معارضته مع أنه نزل بلغتهم، ولم يخرج عن مفرداتها، وقواعد تراكيبها، وقوانين صياغتها.

وقد خُصَّ البيان القرآني بخصائص هي روح الإعجاز فيه، أهمها عمق الدلالة في اختيار اللفظ الجامع بين القصد في المبنى والوفاء بحق المعنى، ولكي تتضح هذه الدلالة، وتظهر علاقتها بالاحتراس القرآني لابد من الوقوف مع المطالب الثلاثة التالية:

(١) ينظر: إتقان البرهان في علوم القرآن، د. فضل حسن عباس، ١١٣/١، بتصرف، الناشر: دار الفرقان، ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

المطلب الأول

الإعجاز البياني عند المفسرين

جرت العادة في تعريف الإعجاز البياني واستخراج معالمه ومظاهره من علماء الإعجاز القرآني الذين حصروا مظاهر الإعجاز فيه على ثلاثة أمور: الحروف، والكلمات، والجمل(١).

ولكني أريد استخراج تعريف الإعجاز البياني ومعالمه من المفسرين:

- لبيان أهميته عندهم، ومدى جهدهم في استخراج أعظم وجوه الإعجاز، ومدى التنوع في رؤيتهم لهذا النوع من الإعجاز البياني.
- ولبيان أن المفسرين لهم فضل السبق في العناية بالإعجاز البياني، وإن فاتهم –أحيانًا– تسمية المصطلح، لارتباط ظهور المصطلح بظهور المصطلحات البلاغية، وذلك في النقاط المحددة التالية:

- **الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ): الإعجاز البياني هو سر تفضيل القرآن على سائر الكتب:**

فيرى –رحمه الله– أن أشرف تلك المعاني التي فُضِّل بها كتابنا على سائر الكتب، هو نظمه العجيب، ووصفه الغريب، وتأليفه البديع، الذي عجزتْ عن نظم مثلِ أصغر سورة منه الخطباء، وكَلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء، وتحيَّرت في تأليفه الشعراء، وتَبَلَّدَت –قصورًا عن أن تأتي بمثله– لديه أفهامُ الفهماء، فلم يجدوا إلا التسليم والإقرار بأنه من عند الواحد القهار(٢).

(١) ينظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، ص٢٨، الناشر: المكتبة العصرية، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص٢١١، الناشر: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣ه.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ١٩٩/١.

- **الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): لا يعرف معجزة القرآن إلا منْ برع في علم البيان:**

فالواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحا من سيبويه، واللغوي وإن مَلَكَ اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى أحد منهم بسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان(١).

- **الإمام ابن عطية (ت ٥٤٢هـ): إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه:**

فلا يستطيع أحد أن يأتي بسورة من مثل نظمه، ووصفه، وفصاحة معانيه التي يعرفونها، ولا يعجزه إلا التأليف الذي خصَّ به القرآن، وبه وقع الإعجاز(٢).

- **الإمام القرطبي (ت ٦٧١هـ): نظم القرآن مخالف لكل نظم معهود:**

فوجه الإعجاز البياني في النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء(٣).

- **الإمام البيضاوي (ت ٦٨٥هـ): فصاحة القرآن أفحمت كل منطق:**

فالقرآن معجز بفصاحته التي بتَّت(٤) فصاحة كل منطق وأفحمته(٥).

- **الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): القرآن في غاية نهاية البلاغة وتصاريف التعبير:**

فيقرر أن القرآن الكريم جميعه فصيح في غاية نهاية البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير(٦).

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/١.
(٢) المحرر الوجيز، ٤١/١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٧٣/١، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ه.
(٤) بتَّت: البت: القطع، يقال: بتت الحبل فانبت، أي قطعته. العين، الخليل بن أحمد، ٢٣٤/٢، مادة "بت"، دار ومكتبة الهلال.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٣٨/١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٦٠/١.

- **الإمام القاسمي (ت ١٣٢٢هـ): الإعجاز في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى:**

أي إن كان الأمر كما تزعمون، فأتوا على وجه الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وحسن الصياغة، وقوة المعنى، فأنتم مثل في العربية والفصاحة، وأشد تمرنًا في النظم(١).

- **الإمام محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ): سبيل الوقوف على الإعجاز البياني إتقان علمي المعاني والبيان:**

فنبه إلى ضرورة فهم حقائق الألفاظ التي أودعها القرآن، وتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، فيفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، ومن ثم يفسر القرآن بالقرآن نفسه، وذلك بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، وينظر كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من معانيه، ويجب أن يكون محيطًا بعلم الأسلوب والإعراب، متقنًا لعلمي المعاني والبيان(٢).

- **الإمام المراغي (ت ١٣٧١هـ): لا يسمو إلى نظم القرآن وأسلوبه بشر:**

فليعلموا أن ما جاءهم به فأعجزهم، لم يكن إلا بوحي سماوي، وإمداد إلهي، لا يسمو إليه محمد بعقله، ولا يصل بيانه إلى مثل أسلوبه ونظمه(٣).

- **الدكتور محمد عبدالله دراز (ت ١٣٧٧هـ): الإعجاز البياني معجزة المعجزات:**
- فقرر أن البيان القرآني خُصَّ بخصائص هي روح الإعجاز فيه، وهي:

* القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.
* خطاب العامة وخطاب الخاصة.
* إقناع العقل وإقناع العاطفة.
* البيان والإجمال .

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٢٦/٦، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه.
(٢) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، ص٢٤٨، الناشر: دار الكتب العلمية.
(٣) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ٥٦/١، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٥ه.

* الكثرة والوحدة: وهاتان النقطتان متعلقتان بجمال النظم، ذلك أن في السورة المعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها، ثم يمزج بينها فيكون لها مزاج واحد واتجاه واحد، على الرغم من وجود أزمان مختلفة وظروف متباينة(١).

ثم ختم كتابه بقوله: لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءته الصادقة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمري إنه في ترتيب آياته معجزة المعجزات(٢).

- **الدكتور وهبه الزحيلي: العجز عن الإتيان بمثله لبيانه البديع ونظمه الحسن:**

فقرر أنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله، وحيث عجزتم ولم تقدروا على الإتيان بسورة تماثل القرآن في البيان الغريب، والبلاغة المتفوقة، وعلو حسن النظم، وسلامة المنطق، وروعة التشريع، والأحكام الصالحة لكل زمان ومكان، فلن تقدروا على الإتيان بمثله، مع أنه كلام من جنس كلام العرب، وفيهم البلغاء والفصحاء والشعراء والخطباء وأعلام البيان والقول(٣).

- **رأي الباحث في استخراج تعريف جامع من بيان المفسرين:**

إن مجمل كلام المفسرين حاصله: أن القرآن الكريم أتى على أسلوب فصيح بليغ غير معروف للعرب، بل خارج عن نطاق بلاغتهم، وفصاحتهم، في نظمه العجيب، وتأليفه البديع، في حروفه وكلماته وآياته، فكل حرف مقصود لذاته، وكل كلمة لا يعبر عنها سواها، وكل جمله وتراكيبه في مواقعها، مع تصاريفه العجيبة، فبلغ الفصاحة من كل وجه، وارتقى عرش البلاغة من كل سبيل، وهو ما أعجز العرب عند معارضته،

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، د. محمد عبدالله دراز، ص١١، الناشر: دار القلم.
(٢) السابق، ص١٠٩.
(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبه الزحيلي، ١٠١/١، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨ه.

مع أنه نزل بلغتهم، ومعهود مفرداتهم، فقطع عليهم فصاحة كل منطق، بحسن نظمه، وسلامة منطقه، وإعجازه البياني.

وبعد هذه الإطلالة على رؤية المفسرين للإعجاز البياني أستطيع أن أستخرج تعريفًا جامعًا مانعًا من أساليبهم المتنوعة، وعباراتهم المختلفة، **حاصله:** أنه إعجاز في النظم تتآخى فيه الحروف والكلمات والجمل، وتتلاحم فيه الألفاظ مع المعاني، مع مطابقته لمقتضى الحال، وهو بذلك معجزة المعجزات.

المطلب الثاني
الإعجاز البياني وعمق الدلالة

توطئة: لا يخفى على منصف أن القرآن الكريم معجز بألفاظه، وكلماته، وحسن صياغة حروفه، وصفاء كلماته، وروعة نظمه، ونسقه، حتى لا يمكن للفظة –دون لفظة القرآن– أن تسد مسد الأخرى، فليست المعاني وحدها وجه الإعجاز لكتاب الله، بل المباني وألفاظ القرآن أبلغ غاية في إعجازه، وبوصل المباني مع المعاني يصل الكلام إلى الذروة في البلاغة والفصاحة.

والمراد بعمق الدلالة: عمق الدلالة في اختيار اللفظ المؤدي غايته على أكمل الوجوه، والمعبر عن المطلوب على أحسن حال، بحيث من المحال أن يحل لفظ مكان آخر أو يحمل دلالته، وتطبيق هذه الدلالة على الاحتراس القرآني، إنها دلالة إعجازية في استعمال ألفاظ لها عمق دلالي في الاحتراس، فالألفاظ قد تكون متقاربة، لكنها في عمق دلالاتها واستعمالاتها مختلفة، وذلك لا يظهر إلا بتتبع دلالة اللفظة ومقارنتها بغيرها في الدلالة، ومن بلاغة القرآن الكريم أنه يصعب وجود كلمات قرآنية تتفق في دلالاتها اتفاقًا تامًا، وذلك لأن لكل لفظة خاصية دلالية تتميز بها عن غيرها في دلالتها، وإن اشتركا في بعض المعاني، بحيث لو بدل اللفظ بغيره تبدل تبعًا لذلك معنى الكلام، وذهب رونقه، وسقطت بلاغته(١).

المنهج القرآني في اختيار ألفاظ ذات عمق دلالي:

تميزت الكلمة القرآنية بحمل فوارق دلالية تؤدي عمقًا في المعنى، والمنهج القرآني قد رسم لقارئه الدقة في اختيار اللفظ ومراعاته، فلا يختار إلا اللفظ الحسن المعبر عن المطلوب.

(١) ينظر: بيان إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٨-٢٩، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

ففي قوله –تعالى–: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}**[١] الآية، اختار لفظة الذبح بدل القتل، لتصوير الحدث وبشاعته، ودلالة على كثرة حدوثه، وبشاعة القائم به، فكان أدق وأعمق دلالة.

وفي قوله –تعالى–: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا}**[٢] الآية، اختار لفظ "انظرنا" بدل "راعنا" لمراعاة حسن اللفظ وعمق دلالته، فراعنا: من أرعنا سمعك، أي: فرغ سمعك لكلامنا، وفي المخاطبة بهذا جفاء، فأمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أرقها، أمَّا "انظرنا" ففيه الأمر بأن يخاطبوه –ﷺ– بالإجلال، والمعنى: أقبل علينا وانظر إلينا[٣].

وفي قوله –تعالى–: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}**[٤] الآية، وما يحمل من الدقة في استخدام اللفظة المعبرة عن المطلوب، والموصلة إلى حسن المقصود.

وهذا المنهج القرآني مفاده أن الألفاظ يختار أحسنها، وأن الألفاظ القرآنية تحمل فروقًا دلالية متنوعة، فكل لفظة تؤدي المعنى الدقيق التي لا تؤديه نظائرها.

- **الخاصية الأولى من خصائص الإعجاز البياني: مسحة القرآن اللفظية:**

جعل الشيخ الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) الخاصية الأولى من خصائص أسلوب القرآن الكريم: "مسحة القرآن اللفظية"[٥].

وإنما كانت اللفظة القرآنية اللبنة الأولى في الإعجاز البياني لأسباب، أهمها:

- **عمق الدلالة:** فالكلمة في القرآن تعطي مدلولها المطلوب، ومعناها المراد، في الوقت الذي يعجز البلغاء عن التعبير عنه إلا بكلمات متعددة.

(١) سورة البقرة: من الآية ٤٩.
(٢) سورة البقرة: من الآية ١٠٤.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي، ٥٧/٢، ٦٠/٢.
(٤) سورة الحجرات: من الآية ١٤.
(٥) مناهل العرفان، الزرقاني، ٢٢٢/٢، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.

فاللفظة القرآنية تتسع دلالاتها لما لم تتسع له الكلمات الأخرى، وفي ذلك يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): "وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها"(١).

فقد يختار اللغوي –مع براعته– ألفاظًا وغيرها أولى منها في دقة الدلالة، أما الكلمة القرآنية ففي مكانها وموضعها "الذي إذا أبدل تبدل المعنى، وفسد الكلام"(٢).

ودلالات الألفاظ القرآنية تجمع بين الدقة والوضوح والعمق، ويشبه الدكتور فضل عباس خصوصية استعمال الكلمة في سياقها لتؤدي دلالتها الخاصة بها، بالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة بها، تحركت الآلة، وإلا ظلت جامدة(٣).

- **ائتلاف الألفاظ وعدم تنافرها:** من الإعجاز البياني الدقة في اختيار الألفاظ بحيث لا ترى تنافرًا بين بعضها البعض، بل لا ترى إلا التلائم والتوافق.

وقد أشار الإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) في باب: ائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلافه مع المعنى: "أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضًا .. وأن تكون ألفاظ الكلام ملائمة لمعنى الكلام"(٤).

فألفاظ القرآن الكريم ليس في بعضها فصيحًا، وبعضها غير ذلك، بل كل لفظة في أعلى درجات الفصاحة والدقة والدلالة، وقد أشار إلى ذلك الإمام ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) بقوله: "وكتاب الله –تعالى– لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد"(٥).

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ٢٠/١، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ه.
(٢) ينظر: ثلاث رسائل في الإعجاز، الرماني، الخطابي، الجرجاني، ص٢٩.
(٣) ينظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص١٦٦، الناشر: دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٤م.
(٤) الإتقان، السيوطي، ٨٨/٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م، الطبعة الثالثة.
(٥) نقله القرطبي عن ابن عطية، ٧٦/١.

- **ألفاظ القرآن الكريم لبُّ كلام العرب وزبدته:**

وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): "ألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه"(١).

ولما كان العرب أصحاب حسٍّ مرهف للكلمات فإنهم أدركوا ما للكلمة القرآنية من قيمة وإعجاز في النظم.

يقول الرافعي (ت ١٣٥٦هـ): "رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانًا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة .. وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم"(٢).

ويقول الزرقاني: "هذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت"(٣).

هذا النظام التوقيعي في اختيار اللفظة القرآنية فيه من حسن السمع والذوق والانسجام ما يشعر بقوة اللفظة، بحيث لو أبدلت لرأيت مكان النظم خللاً، ولأبدلت القوة ضعفًا، فكلمات القرآن الكريم كلمات منتقاة، ومعبرة، وواسعة الدلالة، ومتوافقة مع نظائرها، ومؤتلفة مع معانيها، سهلة، معبرة، واضحة، جيدة السبك، غير مستكرهة، لها دلالة لا تقوم غيرها مكانها مع اتساع اللسان العربي، وفوق كل هذا ألفاظ ربانية كتب الله لها البقاء ما بقيت الإنسانية، فكانت اللفظة القرآنية بكل ذلك أول وأعظم مظاهر الإعجاز البياني.

(١) مقدمة كتاب المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ٢٦/١، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص٢١٤.
(٣) مناهل العرفان، ٢٢٣/٢.

المطلب الثالث

شواهد تطبيقية من الذكر الحكيم

لعله يتساءل: إن الاحتراس يدرس في علم المعاني على أنه صورة من صور الإطناب فما علاقته بالإعجاز البياني؟!

والجواب: كما أن الاحتراس صورة من صور الإطناب في علم المعاني، فهو – كذلك– يدرس في علم البديع، لأنه يكسب الكلام بهاءً وجمالًا، ولأنه "قد يأتي في فن البديع"(١) فهو من أدق محسنات البيان.

ومن ثمَّ فالاحتراس القرآني إعجاز بياني في ألفاظه ومعانيه وتراكيبه وفواصله، ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسة التي يكشف فيها عن أوجه الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني، نظريًّا، وتطبيقيًا بعرض شواهد تطبيقية من آي الذكر الحكيم، مع بيان جهود المفسرين في هذا الفن، ودورهم في إظهاره، ومظاهر الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس في كل شاهد بالبيان والتحليل، على النحو التالي:

الشاهد الأول: عمق الدلالة، خفة اللفظ، حسن الوقع والسبك:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}**(٢) الآية، ولبيان وتحليل موطن الاحتراس، ودقائق الإعجاز فيه، أقف مع هذه النقاط:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: **{جَهْرَةً}**، فهو احتراس يمنع تأويل الآية على غير ظاهرها بدون قرينة، فهو احتراس يزيل أي احتمال مرجوح بصرف الرؤية البصرية إلى رؤية علمية، فلو لم تذكر لفظة الاحتراس **{جَهْرَةً}** لاحتمل أنهم طلبوا رؤية غير البصرية، فأتى الاحتراس فأزال الاحتمال، وحدد المقصود، وأبان المطلوب، بلفظة واحدة.

(١) الوسيلة الأدبية، د. عبدالعزيز الدسوقي، ٢٨٧/٢، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢) سورة البقرة: من الآية ٥٥.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس:

أشار بعض المفسرين إلى موطن الاحتراس بعبارات متنوعة تهدف إلى الغرض دون المصطلح، وهم:

الإمام البغوي (ت ٥١٦هـ): فقد أشار إلى أن معنى **{جَهْرَةً}** معاينة، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال **{جَهْرَةً}** ليعلم أن المراد منه العيان(١).

وأشار القرطبي (ت ٦٧١هـ): إلى الغرض من الاحتراس، وأنه أكد به المعنى، فقال: "وأكد بالجهر فرقًا بين رؤية العيان ورؤية المنام"(٢).

وزاد الأمر إيضاحًا عند **الخازن (ت ٧٢٥هـ):** فعبر بعبارة الاحتراس المشهورة عند جمهرة المفسرين "**لئلا يتوهم متوهم**"، فقال: "وإنما قال **{جَهْرَةً}** توكيد للرؤية لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم"(٣).

وعبَّر عنه **أبو حيان (ت ٧٤٥هـ):** بعبارة "**مزيل لاحتمال..**"، فيقول: "وانتصاب "جهرة" على أنه مصدر مؤكد مزيل لاحتمال الرؤية أن تكون منامًا، أو علمًا بالقلب"(٤).

وعبَّر عنه **النيسابوري (ت ٨٥٠هـ):** بعبارة "لئلا يتوهم"(٥)، وعبر عنه **الألوسي (ت ١٢٧٠هـ):** بعبارة: "مزيل لاحتمال.." (٦).

والحاصل: أن المفسرين قد اعتنوا بهذا النوع من الإعجاز اعتناءً بالغًا، إيمانًا منهم أنه أسلوب قرآني معجز له أسبابه وأغراضه وفوائده وصوره، إذا جمعها القارئ

(١) تفسير البغوي "معالم التنزيل"، البغوي، ٩٦/١، الناشر: دار طيبة، ١٤٠٩هـ.
(٢) تفسير القرطبي، ٤٠٤/١.
(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، ٤٥/١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
(٤) البحر المحيط، ٢٦٨/١.
(٥) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ٢٩١/١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه.
(٦) روح المعاني، ٢٦٢/١.

وتأملها فإنه يرى صورة بيانية بديعة لأدق أوجه الإعجاز البياني في ظاهرة الاحتراس القرآني.

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس:

إن الإخبار بلفظة {**جهرة**} دون "عيانًا" أو "ظهورًا" لما في اللفظة المختارة من نواحٍ إعجازية، أهمها:

- **عمق الدلالة:** فهي لفظة مدلولها واسع، يشمل المعاني المرادفة لها والقريبة منها ويزيد عليها، ولعل هذا هو السر في التعبير عن اللفظة بالمصدر، فورد التعبير متمكنًا في نظمه، بديعًا في سبكه، جيدًا في نسجه، فوافق مقتضيات الحال والمقام والمرام.

فالجهر لغة: ما رآه جهرة ولم يكن بينهما ستر(١)، أي عيانًا غير مستتر(٢)، ولا شك معه(٣)، ففي إيثار المصدر في ذا المقام دلالة بينة، فهو يحمل دلالة إعجازية بيانية عنوانها عمق الدلالة وإبراز أثرها للعيان، مع ما تحمل من معنى المبالغة في الطلب على ما قرره الإمام الألوسي، فالجهر يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر(٤).

- **خفة اللفظ وحسن وقعه في السمع:** راعى علماء الإعجاز البياني شروطًا للإعجاز في المفردة القرآنية، وأنه إذا كان المعنى يطلب من اللفظ، فلابد من الوقوف على مقام اللفظ ودلالاته، وفي ذلك المقام يقرر الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ): أنه إذا أورد الحكيم –تقدست أسماؤه– آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غُيِّرَ فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى، فلابد من حكمة هناك تُطلب، فإن أدركتموها فقد ظفرتم (٥).

(١) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ١٤٤/٢، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤٢١ه، لسان العرب، ابن منظور، ١٤٩/٤، "جهر".
(٢) تاج العروس، الزبيدي، ٢٦٤١/١، "ج ه ر".
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١٦٩/١، الناشر: دار العلم والثقافة، القاهرة.
(٤) روح المعاني، ٣٢١/١.
(٥) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الإسكافي، ص٢، ١١، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

ومن ذلك أن الألفاظ القرآنية ألفاظ خفيفة لا يشعر معها بالوعورة أو الثقل، فيجمع اللفظ بين الخفة، وحسن السمع، ودقة البيان، وعمق الدلالة(١).

ومنها لفظة "جهرة" فاختيارها دون "عيانًا" لأن "جهرة" أوضح لفظًا لخفته، فإنه غير مبدوء بحرف حلق، والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام، ولسلامته من حرف العلة، وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام، وخفتها على السمع، وللقرآن السهم المعلى في ذلك، وهو غاية الفصاحة(٢).

- **حسن السبك مع السياق:** أقرر أنه مهما ذكر من شروط في فصاحة المفردة القرآنية، فإن أعلاها قدرًا هو وقوعها في موضعها، وائتلافها مع الألفاظ التي تليها، مسبوكة في سياقها كما اللبنة في البناء، لتؤدي المعنى على أكمل وجه، وتزيل ما قد يحدث من سوء فهم.

حتى اعتبر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) أن اختيار اللفظ وإحلاله محله المناسب في السياق هو أساس البلاغة(٣).

وقرر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أن اللفظة لا يحكم عليها إلا من سياقها، لأن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًا من التأليف(٤).

ولما كانت لفظة "جهرة" حسنة السبك مع سياقها أدت المعنى على الوجه المطلوب، لأن المطلوب –في الجو العام– الرؤية التي لا خفاء معها "أي: عيانًا من غير خفاء، ولا نوع لبس، من الجهر، وهو الإعلان بالشيء إلى حد الشهرة"(٥)، فهي

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٥٧، بتصرف.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٣٠١/١.
(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص١٨٨، دار المعارف، القاهرة.
(٤) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٤٥، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٨م.
(٥) نظم الدرر، البقاعي، ٩٥/١.

عيان لا ساتر بيننا وبينه كالجهر في الوضوح والانكشاف[١]، لأن من الرؤية ما يكون لمحة فلا تكون واضحة[٢].

فتمثل الإعجاز البياني في اختيار اللفظة، ووجه فصاحتها حسن سبكها مع السياق، وهو أساس البلاغة، وقمة الفصاحة.

الشاهد الثاني: ثراء اللفظ وجرسه ودقة تصويره:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}**[٣] وهو من أمثلة الاحتراس في آخر الكلام.

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: **{مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** لأنه لو اكتفى بقوله: **{بَيْضَاءَ}** لتوهم أن ذلك البياض من مرض كبرص أو سوء أصاب يده، فاحترس بقوله **{مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** رفعًا للإيهام، ودفعًا لكل ما من شأنه أن يفهم الآية على غير مقصودها.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس:

أزعم أن هذا الاحتراس هو أشهر موطن تناوله المفسرون بذكر مصطلحه دون الاكتفاء بغرضه والمقصد منه.

فنص عليه أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) بقوله: ".. ويقال له عند أرباب البيان **الاحتراس**، لأنه لو اقتصر على قوله **{بَيْضَاءَ}** لأوهم أن ذلك من برص أو بهق"[٤][٥].

ونص عليه ابن عادل (ت ٨٨٠هـ) بأنه "يسمى عند أهل البيان الاحتراس، وهو أن يؤتى بشيء يرفع توهم مَنْ يتوهم غير المراد، وذلك أن البياض قد يراد به البَرص والبَهَق، فأتى بقوله **{مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** نفيًا لذلك"[٦].

---

(١) روح البيان في تفسير القرآن "تفسير حقي"، إسماعيل حقي البروسوي، ١٧١/١، الناشر: المطبعة العثمانية، ١٣٣٠هـ.
(٢) التحرير والتنوير، ٣٠١/١.
(٣) سورة النمل: من الآية ١٢.
(٤) البَهَقُ: بياض دون البرص، لسان العرب، ٢٩/١٠، "بهق".
(٥) البحر المحيط، ٧٢/٨.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٥١/١١.

وأشار الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) إلى مصطلح الاحتراس بقوله: {**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**} أي من غير برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس"[١].

ونص عليه الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) بقوله: ".. وفائدة التعرض لنفي ذلك **الاحتراس**، فإنه لو اقتصر على قوله –تعالى–: {**تَخْرُجْ بَيْضَاءَ**} لأوهم ولو على بُعْدٍ أن ذلك من برص.."[٢]، وهذا الاعتناء من المفسرين بالتصريح بالمصطلح، أو التلميح بغرضه[٣] إيمانًا منهم أن الاحتراس من أدق الفنون للوقوف على دلالات الألفاظ والتعرف على الخصائص البيانية للمفردات القرآنية.

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس:

إن اختيار لفظة {**سُوءٍ**} دون عيب، أو مرض، أو برص ليحمل جملة من مظاهر الإعجاز البياني، أهمها:

- **ثراء اللفظ القرآني:**

من الإعجاز البياني في اللفظ القرآني أن يستغنى به عن ألفاظ، ويدل به على معانٍ كثيرة، فاللفظة فيه جامعة شاملة، وقد أشار الباقلاني إلى أن جمال الكلمة في القرآن يتمثل في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جبينه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله[٤].

يقول الدكتور دراز: "القرآن الكريم يستثمر دائمًا أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني"[٥] فالقرآن يدل بالكلمة الواحدة أو الكلمات المختصرة على معانٍ متعددةٍ يطول شرحها، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن لم يصل إلى بغيته إلا بلفظٍ أطول وأقل دلالة[٦].

---

(١) فتح القدير، ٣٤٤/٥.
(٢) روح المعاني، ١٣٣/١٢.
(٣) ينظر: تفسير البيضاوي، ١٠٣/٤، تفسير النسفي، ٤١/٣، تفسير أبي السعود، ٣٤٩/٤.
(٤) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٦٤، الناشر: دار المعارف، مصر.
(٥) النبأ العظيم، ص١٢٧.
(٦) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم المطعني، ٣٦٧/١، الناشر: مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ.

وذاك لأن اللفظة القرآنية لفظة مختارة تتجدد بكثرة ما تعطي من معانٍ.

يقول الإمام أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ): "واللفظ المفرد له بلاغة خاصة في ضمن الأسلوب، وأن كل كلمة في جملة من الكلام تدل بمفردها على معانٍ تتساوق مع المعنى الجملي للكلام.." [١]، وهذا الإعجاز البياني في المفردة القرآنية جعل كتاب الله خالدًا يفهم منه كل جيل ما لم يفهمه الآخر، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة[٢].

ومن ذلك: لفظة الاحتراس {**سُوءٍ**} التي استغنى بها عن ألفاظ، ودل بها على معانٍ، بلفظة جامعة شاملة، فالسوء "اسم جامع لكل آفة وداء"[٣]، فلفظة واحدة نفت "توهم عيب مطلقًا"[٤].

- **الإخبار بالألفاظ اللطيفة والميل عن الألفاظ المستقبحة:**

من الإعجاز البياني الإخبار بالألفاظ اللطيفة، والميل عن كل لفظ مستقبح يسبب أذىً في النفس، فيكني عنها بلفظ مستحسن، وذاك لأن اللفظة في القرآن تجمع بين توصيل المعاني، والحفاظ على الذوق، فتحدث الألفاظ المستحسنة خفة في السمع، وجمالاً في الذوق، وروعة في البيان.

ومن ذلك: أنه كنى عن البرص بالسوء، كما كنى عن العورة بالسوأة، لما أن الطباع تنفر عنه، والأسماع تمجّه، وهو أبغض شيء عند العرب[٥]، فاختار القرآن الكريم اللفظة التي تقبلها الطباع، وتجنب ما تعافها أو تنفر منها.

- **الجرس الموسيقي والتآخي بين الكلمات:**

من الإعجاز البياني للمفردة القرآنية أن للكلمة بلاغة خاصة في أدائها بمدها، فإن المد يمثل نغمةً وجرسًا بديعًا، ويحدث تآخٍ بين الكلمة وأخواتها، ومن أنصار ذلك

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٩٣، الناشر: دار الفكر العربي.
(٢) ينظر: مناهل العرفان، ٣٠٨/٢، بتصرف.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري، ٢٣٠/١، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.
(٤) روح المعاني، ١٣٣/١٢.
(٥) السابق، ١٣٣/١٢.

النوع من الإعجاز الإمام الرافعي، إذ قرر ذلك بقوله: "لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانًا لغويةً رائعةً، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة"(١).

ومن ذلك: ما أحدثه التناغم في مد "سوء" بحيث لو أبدلت اللفظة بما يرادفها من برص أو مرض أو ما شابه لضاع نغمها ولفقد تآخيها.

- **دقة التصوير:** من الإعجاز البياني اختيار لفظة أو مفردة قرآنية تستطيع وحدها أن تصور المشهد مرئيًا أمام العين، فتنقلك من الغيب إلى المشاهد.

ومن ذلك: لفظة الاحتراس **{سُوءٍ}** فإنها مع تصويرها للمشهد بصفة عامة، فإنها تصور كذلك قوة أهل الحق مع قلتهم وضعف أهل الباطل مع كثرتهم، إنها مفردة تصور حالة مؤلمة مزعجة للمعاندين، وصورة مشرفة للمؤمنين، بجمال في التصوير، مع بالغ الدقة في التعبير.

الشاهد الثالث: ألطف الاحتراس وأعجبه في القرآن الكريم:

ويتمثل في قوله –تعالى–: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ}**(٢).

أولاً: موطن الاحتراس: من ألطف مواطن الاحتراس في خطاب الله –تعالى– لنبيه –ﷺ–.

وذلك: أن القرآن الكريم حَدَّد المكان الذي خاطب الله فيه موسى –عليه السلام– بقوله: **{وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ}**(٣)، ولما أراد أن يخاطب به نبيه –ﷺ– قال: **{بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ}** "والغربي: غربي الجبل"(٤).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص٤٨.
(٢) سورة القصص: الآية ٤٤.
(٣) سورة مريم: من الآية ٥٢.
(٤) تفسير الطبري، ٥٨٤/١٩.

فأتى بالاحتراس "الغربي" لطفًا مع النبي -ﷺ- لأنه لو نفى عنه كونه بالجانب الأيمن -والتيامن محبوب عند العرب- لنفى عنه صفة اليُمن[١]، فهو احتراس غاية التشريف للنبي -ﷺ-.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس:

أشار بعض المفسرين إلى هذا النوع من الاحتراس البديع، وذكروا أنه أعجب احتراس وقع في كتاب الله -تعالى-.

ومنهم الإمام **الثعالبي (ت ٧٨٦هـ)**: الذي عَلَّلَ سبب الاحتراس أن محمَّدًا -ﷺ- لا يقال له: "ما كنت بالجانب الأيمن"، فإنه لم يزل بالجانب الأيمن مُذْ كان في ظهر آدم -عليه السلام[٢].

والإمام ابن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ) فقال: ".. والغربي: هو الأيمن، والعدول عنه في حالة النفي للاحتراس من توهم نفي اليمن عنه -ﷺ-، وكيف وهو -ﷺ- لم يزل بصفة اليُمن وآدم بين الماء والطين"[٣].

ومن علماء علوم القرآن: العلامة الزركشي الذي قرر أنه لم يقل في هذا الموضع الأيمن كما قال: **{وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ}** أدبًا مع النبي -ﷺ- أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن، أو يسلب عنه لفظًا مشتقًا من اليمن أو مشاركًا لمادته، إلى أن قال: وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب[٤].

حاصل كلام المفسرين أنه احتراس عجيب، بل أعجب احتراس.

ففيه من دقة اختيار اللفظ في موضعه ما فيه، فالتعبير بالجانب الأيمن في حق موسى -عليه السلام- تشريف له، والاحتراس بنفيه في الجانب الغربي أدب في الخطاب، ليناسب صاحب المقام الأسمى -ﷺ-.

(١) ينظر: تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع، ٢٤٧/٢، بتصرف.
(٢) تفسير الثعالبي، ١٥٤/٣.
(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد،ابن عجيبة، ٤٣٤/٤، الناشر:دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ.
(٤) البرهان، ٦٦/٣.

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس:

إن الاحتراس بلفظة "الغربي" في النفي، بدلاً من "الأيمن" فيه من مظاهر البيان والإعجاز ما جعلته أعجب احتراس قرآني، أهمها:

- **حسن اللفظ والتأثير على المتلقي:**

إن اختيار الألفاظ الحسنة في القرآن الكريم إعجاز بياني بديع، هدفه التأثير على نفوس متلقيه، وقد أشار الخطابي (ت ٣٨٨هـ) إلى هذا النوع من الإعجاز في قوله: "قلت: في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه"(١).

وجعل **أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)** أن حسن العرض من أدق شروط البلاغة، فيقول: "وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطًا في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة... لم يسم بليغًا"(٢).

وقد أشار الإمام الثعالبي أن اختيار لفظة الاحتراس **{الْغَرْبِيِّ}** بدلاً من الأيمن في حق موسى –عليه السلام– فارق بياني كبير بين المقامين، فيقول: "وبين اللفظين في ذكر المقامين ما لا يخفى في حُسن العبارة، وبديع الفصاحة والبلاغة"(٣).

وقرر الإمام ابن عجيبة أن اختيار اللفظة فيه من الإعجاز البياني حسن اللفظ، وهو أصل في البلاغة(٤).

فحسن اللفظ أداة دلالية هدفها التأثير على المتلقي وأحاسيسه ومشاعره تأثيرًا يحمله على الهداية، والتعرف على أوجه الإعجاز البياني للكتاب الكريم.

---

(١) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي، ص٧٥.
(٢) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص١٩، الناشر: عيسى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ.
(٣) تفسير الثعالبي، ١٥٤/٣.
(٤) ينظر: البحر المديد، ٤٣٤/٤.

• **مجانبة الاشتراك الموهم:** إذا كان الكلام موضوعًا للإبانة، وجب أن يتخير من الألفاظ ما كان أقرب إلى الدلالة، وأوضح في الإبانة، وألا يحدث اشتراكًا موهمًا يترتب عليه الخلل في المعنى، لأن الاشتراك الموهم ينتج من "عدم الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى، ومدى القدرة على تسخير الأول لتجلية الثاني، وعرضه في المظهر المطلوب"(١).

وقد أشار الإمام الثعالبي إلى أن اختيار لفظة الاحتراس في هذا الموطن فيه من الإعجاز البياني "مجانبة الاشتراك الموهم"، وأنه "من فصيح بديع الفصاحة"(٢).

• **مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطَب:** من بلاغة الكلام أن يكون مطابقًا لحال من يخاطب به، مع فصاحة مفرداته، وجمله.

فلا يصل الكلام الفصيح إلى درجة البلاغة إلا بمطابقته حال المخاطب به: فالكلام قد يكون فصيحًا ولكنه لا يصل إلى درجة البلاغة، لأنها أعم، فكل بليغ فصيح، كلامًا أو متكلمًا، وليس كل فصيح بليغًا، فالكلام الفصيح لا يكون بليغًا حتى يكون مطابقًا لحال المخاطب به(٣).

لأن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني(٤).

وقد أشار الإمام الزركشي إلى هذا النوع من الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس، فذكر أن سببه: مخافة أن يسلب عنه لفظًا مشتقًا من اليمن، وأن ذلك مبني على الأدب مع النبي -ﷺ-(٥) فطابق الكلام حال المخاطب، فاجتمعت في لفظة الاحتراس بديع فصاحة اللفظ، وروعة بلاغة المعنى.

(١) الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون، ص٦٣، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ.
(٢) ينظر: تفسير الثعالبي، ١٥٤/٣.
(٣) سر الفصاحة، أبو محمد عبدالله بن سنان الخفاجي الحلبي، ٥٩/١، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
(٤) سر الفصاحة، ٢٩/١، بتصرف.
(٥) ينظر: مناهل العرفان، ٦٦/٣، بتصرف.

أقول: إن الاحتراس القرآني أسلوب له سمات وخصائص، مع مراعاته جميع الملابسات التي تحيط بالمقام، ومن أهمها مراعاة حال المخاطب، فإذ به أسلوب عنوانه الأدب في اختيار الألفاظ، أسلوب يحقق التناسب بين الخطاب والمخاطبين، مع ما فيه من ثراء للمعنى التفسيري، وزيادة للإفهام، وإذا كان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) عرَّف البيان بأنه: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(١).

فهذا ما حققه الاحتراس وزيادة، فأتى أعلى تأثيرًا، وأقوى إقناعًا، وأقرب فهمًا، وأبعد عن عثرات الكلام وسقطاته.

الشاهد الرابع: دقة الكلمة وائتلاف اللفظ والارتباط بالسياق:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}**(٢)

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: **{إِذَا هَوَى}** فإن الآية لو اكتفت بالقسم لتوهم أنه إقرار لهم في عبادتهم لنجم الشعرى، فاحترس بقوله **{إِذَا هَوَى}** لتمكن المعنى في نفوس السامعين، ولبيان أن القسم ليس إقرار لهم بل عليهم، فهو قسم بمخلوق مسخر يهوى ويسقط.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس:

صَرَّح الطاهر بن عاشور بمصطلح الاحتراس والغرض منه، فذكر أن قوله –تعالى–: **{إِذَا هَوَى}** احتراس من أن يتوهم المشركون أن في القسم بالنجم إقرارًا لعبادة نجم الشعرى، وأن القسم به اعتراف بأنه إله، إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها، فيكون قوله: **{إِذَا هَوَى}** إشعارًا بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله، مسيرة في نظام أوجدها عليه، ولا اختيار لها، فليست أهلًا لأن تعبد(٣).

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ٥٧/١.
(٢) سورة النجم: الآيتان ١-٢.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦٦/١٤.

وأكثر المفسرين تعرضوا لغرض الاحتراس دون ذكر المصطلح –فذكروا أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان منهم من يعبده، فنبه بهُوِيه على عدم صلاحيته للإلهية بأفوله، فالقسم دال على الوحدانية، وأنه لا يملك طلوع النجم وغروبه إلا خالقه(١).

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس:

- **دقة اختيار لفظة الاحتراس:** من الإعجاز البياني اختيار ألفاظ تحمل دقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة النظم، فاختيار لفظة {**هَوَى**} بدلاً من سقط، غاب، غرب، هلك، لأن الهوي لفظة جامعة لكل هذه المفردات، وما ذاك إلا لأن اللفظة هي الأصل الذي يدور حوله المعنى، وقد أشار الطاهر إلى أن اختيار لفظة الهوي حصل المقصود بها من القسم، والقدرة الإلهية، مع الاحتراس عن عبادتها، لأن الهُوِي تعبير عن حالة أفولها، وهم يعدون طلوع النجم أوجًا لشرفه، وغروبه حضيضًا(٢)، فأتت اللفظة في موضعها، معبرة عن المطلوب، يحترس بها عما قد يتوهم.

- **ائتلاف اللفظ مع اللفظ:** من الإعجاز البياني تآلف الألفاظ حتى إن القارئ ليشعر أنها من وادٍ واحدٍ، فكل لفظة لا يسد غيرها مسدها، وإذا جئنا بلفظة مكانها لأداء المعنى المقصود لم يكن نظم الكلام الأول، وصار الكلام كالشيء المعوَّز الذي يحتاج إلى تمام(٣)، فإذا ما أبدلنا لفظة {**هَوَى**} بما يرادفها من السقوط أو الغروب أو الهلاك لرأيت في الألفاظ غرابة وتنافرًا، يضيع معه النظم، ويتلاشى فيه النسق.

- **الارتباط بالسياق:** قرَّر العلامة الزركشي أن السياق أهم الدلائل في اختيار اللفظة المراد تفسيرها، وأنه لذلك يجب أن يكون محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام

(١) ينظر: التفسير الكبير، الطبراني، ١٣٣/٦، الناشر: دار الكتاب الثقافي، اللباب، ١٥٤/١٨، نظم الدرر، ٢٣٥/٨، فتح القدير، ٦٦/٧.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦٦/١٤، بتصرف.
(٣) ينظر: البلاغة العربية، عبدالرحمن بن حسن حبنكة، ٥٢٠/٢، بتصرف، الناشر: دار القلم، دمشق.

الذي سيق له، فدلالة السياق من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، في الكشف عن المعنى البديع للفظة في سياقها(١).

فلفظة الاحتراس {**هَوَى**} ليست بمعزل عن السياق، بل تتناسق معه تناسقًا كاملاً، فلما أتت اللفظة في نظمها مع السياق، إذ بها أصابت المعنى، وأراحت الحواس، وتماشت مع الذوق، في سهولة لفظها، وتلاحم نظمها، وسياقها، فإذ بها جمعت بين قوة الجرس، وعمق الدلالة، ودقة التصوير، وفوق ذلك التوافق مع الجو العام للآيات الكريمات.

وبعد هذا العرض لبيان أوجه الإعجاز البياني في ألفاظ الاحتراس القرآني أقف – مع ما سبق بيانه– مع نقاط أهمها:

- الاحتراس وجه من وجوه الإعجاز القرآني، ولون من ألوان البديع.
- الاحتراس أسلوب يهدف في ألفاظه إلى دفع ما قد يتوهم من سوء فهم.
- اختيار المفردات القرآنية أدق أوجه الإعجاز البياني وأشد عجائبه.
- الوقوف على دلالات الألفاظ وتميزها من نظائرها والقريبة منها يعطي قوة في التفسير، وكشفًا عن أوجه الإعجاز البياني.
- دقائق الإعجاز البياني في الاحتراس القرآني لا تدرك إلا بتدبر رصين قائم على معرفة فصاحة الألفاظ القرآنية، ووضعها في دائرة سياقها للكشف عن مكنونات التفسير، والوقوف على أوجه إعجازه، وأسرار بيانه.

(١) ينظر: البرهان، ١٧٢/٢، بتصرف.

المبحث الثاني

الاحتراس ودفع التوهم

وأعني به إزاحة ما قد يتوهم من معاني غير مرادة بألفاظ الاحتراس، والوقوف على مظاهر الإعجاز البياني في المعنى القرآني بدراسة تطبيقية على الاحتراس القرآني، تحت المطالب التالية:

المطلب الأول: فضيلة الألفاظ في ملائمة المعاني

إن الإعجاز في النظم لا يكون بألفاظ مجردة، أو اختيار كلمات حسنة، وإنما بما تتلاءم وتتوافق مع المعاني، حتى قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ):

"لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"(١).

فالكلام لا يحدث تأثيرًا في المتلقي إلا إذا جمع بين دقة اللفظ وجمال التعبير عن المعنى، بدليل أن الكلمة وحدها قد تحقق الملائمة في موضع، ولا تحققه في آخر، وقد قرر الإمام عبدالقاهر (ت ٤٧١هـ) هذا المعنى بقوله:

"فقد اتضح إذن إيضاحًا لا يدع للشك مجالاً، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتُوحشك في موضع آخر"(٢)، ثم بيَّن أن نظم الكلم ليس في توالي ألفاظه في النطق، ولكن في تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها، فليس النظم تحري الكلم

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ١١٤/١.
(٢) دلائل الإعجاز، ص٩٧-٩٨.

فقط، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس"[١].

فإعجاز النظم لما يجمع فيه بين الألفاظ ودقتها، والمعاني وروعتها، فاللفظة بناء أو أداة في توصيل المعنى، والعلاقة بين الألفاظ القرآنية ومعانيها علاقة إعجاز وتآلف يرى فيه:

- الاتساق الكامل مع المعنى، حتى إنك لتشم رائحة المعنى بمجرد سماع اللفظة.
- الجمال والروعة بين الألفاظ ومعانيها، والنظم ومدلوله، فلا ترى فيه إلا الألفاظ المستحسنة، والمعاني المزينة.
- التناسق التام بين دلالات الألفاظ ودقة التعبير عن المعاني على الوجه الذي تفهمه العقول وتستريح له النفوس.

المطلب الثاني: من الإعجاز البياني اتساع المعنى القرآني

اتساع المعنى والمعنى الثاني: الاتساع: يكون في لفظ محتمل بحيث لا يمنع أن يكون المعنى الآخر مرادًا[٢].

فاتساع المعنى يعني الزيادة على الأصل دون الخروج عن إطار المعنى المطلوب.

أمَّا المعنى الثاني: فإنه يطلق على ما يحتمله التعبير وما لا يحتمله، ما يوافق المعنى وما يعارضه.

---

(١) ينظر: الخصائص، ابن جني، ٢/٤٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) المشترك اللفظي واللغوي: المشترك اللفظي: لفظ تتسع فيه المعاني. أمَّا المشترك اللغوي: فهو اشتراك أكثر من لفظ في معنى واحد وهو ما يسمى بالترادف، أو يشترك معنيان فأكثر في لفظ واحد، فإن كان المعنيان متضادين فهو المسمى بالتضاد، أو غير المتضادين فهو الاشتراك اللفظي. "ينظر: لهجات العرب وامتدادها إلى العصر الحاضر، د. عيد الطيب، ص٢٢٧، الناشر: دار القاهرة".

واتساع المعنى القرآني ظاهرة إعجازية لها أسباب تتعلق باللفظ، وقد تتعلق بالقراءات، أو حروف المعاني، وأهم ما يتعلق باللفظ:

أولها: الاشتراك اللفظي: وهو على خلاف الأصل، ومعناه: أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر(١)، أو ما اتحدت صورته واختلف معناه(٢).

والمشترك تقوم فائدته على توسيع المعاني للوصول إلى الدلالة المقصودة.

ومنه قوله –تعالى–: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}**(٣) حيث جاءت كلمة "نهر" بالإفراد لا الجمع، وهو انفراد عن باقي الآيات الأخرى التي جمعت فيها اللفظة، وسببه أمور:

إما لأن لفظة "نهر" مفردة جمعت من المعاني ما لا يوجد وهي مجموعة، فالنهر: ترد في كلام العرب على معنى السعة، قال ابن فارس: "النون والهاء والراء" بهذا الترتيب أصل صحيح يدل على تفتح شيء أو فتحه، تقول: أنهرت الدم إذا فتحته وأرسلته، وسمي النهر نهرًا لأنه ينهر الأرض أي يشقها(٤).

فالنهر يشير إلى السعة عامة، وقد تكون في المعيشة أو الأرزاق أو المنازل.

قال ابن دريد: وأصل النهر السَّعة والفُسحة، وفسر قوله –عز وجل–: **{فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}** في ضوء وفسحة، وهو كلام المفسرين(٥).

ووجه العلامة الطبري هذا التعبير على أن (نهر) معناها النهار(٦).

وقد يكون النهر اسم جنس بمعنى الأنهار، ومن ثم هو بمعنى الجمع(٧)، إضافة إلى أن فواصل الآيات تقتضي الإفراد لا الجمع، على ما قاله الواحدي "فوحَّد لوفاق الفواصل"(٨).

(١) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ٦٩/١، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة الأولى.
(٢) ينظر: الكتاب، سيبويه، ٢٤/١، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية.
(٣) سورة القمر: الآيتان ٥٤-٥٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢٨٩/٥.
(٥) جمهرة اللغة، ابن دريد، ٤٤٩/١، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
(٦) ينظر: تفسير الطبري، ٦٠٩/٢٢.
(٧) زاد المسير، ٤٥٨/٥، بتصرف.
(٨) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، ١٦٠/١، الناشر: دار القلم، الأولى، ١٤١٥م.

فاتسعت المعاني وكلها محتملة، وهو أهم أسباب اتساع المعنى التفسيري.

ثانيها: اشتراك معانٍ في صيغة واحدة: إن ورود صيغة بمعنى صيغة أخرى كثير في اللسان العربي، وقد ورد في القرآن الكريم آيات اختلف المفسرون في معانيها بسبب الصيغة واشتراكها بين المصدر الميمي واسم الزمان واسم المكان، ومن ذلك قوله –تعالى–: **{أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}**[١] حيث قرر الألوسي أن تفسير المستقر والمقيل بالمكانين حسبما سمعت من المشهور وهو أحد احتمالات تسعة، وجوز أن يكون كلاهما اسم مكان أو اسم زمان أو مصدرًا[٢].

وذكر الشوكاني في قوله –تعالى–: **{وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ}**[٣] أن المراد بالمستقر موضع الاستقرار، وقد يكون بمعنى الاستقرار، فالآية محتملة للمعنيين[٤].

فاللفظة قد تفهم بمعنى الاستقرار على أنها مصدر، وقد تحمل على معنى مكان الاستقرار على أنها اسم مكان، أو على معنى زمان الاستقرار على أنها اسم زمان.

ثالثها: الحذف وتقدير المحذوف: قد تتوسع المعاني بسبب الحذف وما يترتب عليه من تقدير المحذوف، "فما أمكن تقديره لدى السامع وأمكن أن يكون مرادًا مقصودًا في سياقه كان من باب التوسع"[٥].

ومن شواهده قوله –تعالى–: **{وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}** من الآية الكريمة **{وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}**[٦]، فيجوز أن يكون المعنى: وترغبون في أن تنكحوهن لجمالهن، ويجوز أن يكون: وترغبون عن نكاحهن لدمامتهن[٧].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٤.
(٢) روح المعاني، ٧٨/١٤.
(٣) سورة البقرة: من الآية ٣٦.
(٤) فتح القدير، ٧٦/١.
(٥) ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، ص٩٧، الدار الجامعية للطباعة.
(٦) النساء: من الآية ١٢٧.
(٧) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١٢٥/١، عالم الكتب، بيروت، الأولى، ١٤٠٨ه، الكشاف، ٥٦٧/١، التحرير والتنوير، ٢١٢/٥.

رابعها: التضمين: وهو أسلوب من أبرز الأساليب العربية، ولا يرد إلا لفائدة، "وتؤدي فيه الكلمة مؤدى كلمتين"[١].

وحاصله: أن يؤدي فعل أو ما في معناه فعل آخر أو ما في معناه، أو إشراب معنى فعل لفعل ليعامل معاملته[٢].

ومنه قوله –تعالى–: **{يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}**[٣] فقد ضمَّن الفعل معنى (يروى) لأنه لا يتعدى بالباء، فأريد بالكلمة الشرب والري معًا، فجمعت بين الحقيقة والمجاز بلفظ واحد، بدقة بديعة في اختصار اللفظ واتساع المعنى.

أقول: ويجب أن يعلم أن إشراب لفظ معنى زائد على أصله يقرر قاعدة مفادها أن "مدار التضمين على المعاني لا الألفاظ".

وأن مرونة الألفاظ القرآنية من أدق ظواهر الاتساع في المعاني، وهي من دقيق أنواع الإعجاز التي لا يمكن أن تجتمع إلا في كتاب الله –تعالى–.

المطلب الثالث: شواهد تطبيقية من آي الذكر الحكيم

إذا كان الاحتراس القرآني زيادة في اللفظ، فما كانت إلا لإفادة المعنى، لأن المعنى هو المراد، والاحتراس هو الحامي له مما يتوهم، ومن ثَمَّ فالاحتراس القرآني إعجاز بياني في المعنى كما كان في النظم، ومن الشواهد التطبيقية على ذلك:

الشاهد الأول: التآلف في المعنى والتوازن وجمال التعبير:

وذلك في قوله –تعالى–: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[٤]

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري، ٤/٢، دار القلم، بيروت.
(٢) ينظر: الكليات، الكفوي، ٤٠٤/١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.
(٣) سورة الإنسان: من الآية ٦.
(٤) سورة الفاتحة: الآية ٥.

أولاً: موطن الاحتراس: تكرار "إياك"، فتكرارها لنفي احتمال أننا نعبدك ونستعين بغيرك، فلو اكتفى بـ "إياك" الأولى ولم يكررها لتوهم في معنى الآية ما ليس فيه، فأتت لفظة الاحتراس فضبطت المعنى وأوصلته إلى المقصود.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: ممن أشار إلى هذا الاحتراس من المفسرين الإمام شهاب الدين السيواسي (ت ٨٦٠هـ) في تفسيره «عيون التفاسير» وعبَّر عن الغرض من الاحتراس بقوله: "لنفي الاحتمال"، فقرر أن: "تكرير **{إِيَّاكَ}** لنفي احتمال: ونستعين بغيرك، وقدمت العبادة على الاستعانة لأن الوسيلة تقدم على الطلب"(١).

وعبَّر عنه الإمام الألوسي بقوله "ربما يتوهم" فذكر أن تكرار "**إياك**" للتنصيص على طلب العون منه –تعالى، فإنه لو قال –سبحانه: إياك نعبد ونستعين، لاحتمل أن يكون إخبارًا بطلب المعونة من غير أن يعين ممن يطلب، وقيل: إنه لو اقتصر على واحد ربما توهم أنه لا يتقرب إلى الله –تعالى– إلا بالجمع بينهما والواقع خلافه(٢).

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس:

- **التناسق في الدلالة والتآلف مع المعنى:** إن اللفظ لا يدل على روعة بذاته إلا بالتناسق مع المعنى والتآلف معه، بدليل أن اللفظ قد يجمل في موطن ولا يجمل في غيره، فكمال الإعجاز توافق الألفاظ مع المعاني. فأتت لفظة الاحتراس **{إِيَّاكَ}** متناسقة في دلالتها ومتوافقة مع المعنى، الذي هو تخصيص العبادة والاستعانة بالله –تعالى، ورفع ما قد يتوهم من أن الاستعانة بغيره لو حذفت لفظة الاحتراس.
- **الانسجام والتوازن مع وجود تكرار:** إن لفظة **{إِيَّاكَ}** مع تكرارها تحمل معنىً جديدًا، ينسجم مع المعنى الأول، ويتلاءم معه تلاءمًا تامًا ويتوافق مع السياق، بحيث إن القارئ ليرى في تكرار لفظة الاحتراس دقة دلالية في اللفظ، وروعة في تحصين المعنى، بأسلوب سلس، لا يشعر فيه بتكرار بقدر ما يشعر فيه بانسجام وتوازن.

(١) عيون التفاسير، شهاب الدين السيواسي، ٨/١، تحقيق: بهاء الدين الدارتما، دار صادر، ١٤٢٧ه.
(٢) روح المعاني، ٦٨/١.

- **جمال التعبير بلا تكلف ولا تعسف:** وأعني به: تأدية المعنى بوضوح تام، مع جمال اللفظ، وروعة المعنى في تآخ تام "وكأن المعاني قد جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الألفاظ قطعت لها، وسويت على حجمها"(١).

فأتت لفظ الاحتراس {**إِيَّاكَ**} معبرة عن المعنى بلا تكلف ولا تفصيل، ولكن بلفظ واحد جمع فيه بين دقة التعبير، وقصر في العرض، وضبط للمعنى، ووجود ما يتوهم لو حذفت لفظة الاحتراس.

الشاهد الثاني: دفع توهم المجاز بلا قرينة:

وذلك في قوله –تعالى–: {**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**}(٢).

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {**بِأَيْدِيهِمْ**}، فإنها لو لم تذكر لتوهم فيها المجاز، وأنهم بدلوا بأي طريقة أخرى، فإذ بلفظ الاحتراس يرفع المجاز، ويؤكد المعنى بحمله على الحقيقة.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: أشار إلى موطن الاحتراس من المفسرين: أبو حيان، وابن عادل، وأبو السعود، والبروسوي، والألوسي(٣)، وحاصل كلامهم:

أن لفظة الاحتراس لرفع توهم المجاز، إذ لا قرينة توجبه، ومعلوم أن المجاز "يحتاج إلى قرينة لفهم المعنى المراد منه" بخلاف حقيقة اللفظ فإن المعنى فيه ظاهر، لأنه الأصل والمجاز فرع منه، ولا يصرف اللفظ عن الحقيقة إلا إذا دلت عليه قرينة صارفة.

ثالثًا: الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس: إثبات المعنى بلا تكلف ولا تعسف.

وبيان ذلك: أن لفظة الاحتراس صرفت اللفظة إلى المعنى المراد بها، على اعتبار أن المعنى أقرب ما يكون إلى حقيقة اللفظ، ومن جهة أخرى: إن حمل الكلام

(١) القرآن المعجزة الكبرى، محمد أبو زهرة، ص٩٥.
(٢) سورة البقرة: من الآية ٧٩.
(٣) ينظر: البحر المحيط، ٤٣/٤، اللباب، ٤٠٣/١، تفسير أبي السعود، ٢٥٤/١، تفسير حقي،٢١٣/١، روح المعاني، ٣٠٢/١.

على المجاز بلا قرينة يجعل المعنى لا مزية له كما قرر ابن الأثير[١]، فأتت لفظة الاحتراس على الأصل، وحفظت الكلام من حمله على الفرع بلا قرينة مما يجعل التأويل بعيدًا، والمعنى لا فائدة فيه ولا ثمرة.

الشاهد الثالث: الجمع بين الآيات لتكامل المعنى ودفع التناقض:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله -تعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ}[٢].

فإن لفظة "الإثم" تمثل الاحتراس، فلولاها لوقع اللبس، إذ العزة في الأصل محمودة، فلما ذكرت لفظة الاحتراس **{بِالْإِثْمِ}** تبين أن المراد بها عزة أخرى مذمومة، فتكامل المعنى، ورفع اللبس.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: أشار إلى موطن الاحتراس من المفسرين أبو حيان، والسمين الحلبي، وابن عادل[٣]، والثلاثة عبروا عنه بالتتميم وعرفوه بأنه: إرداف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس، ومعلوم أن الاحتراس والتتميم من المترادفات التي يطلق بعضها على الآخر.

ثالثًا: الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس: نفي الاختلاف والجمع بين الآيات:

إن لفظة الاحتراس تمثل إعجازًا بيانيًا من أوجه ثلاث:

أولها: نفي الاختلاف عن المعنى: فالقرآن الكريم من أدق أوجه إعجازه أنه لا اختلاف فيه أيًّا كان نوع الاختلاف، فلا اختلاف تناقض، ولا اختلاف تفاوت، ولا اختلاف تشابه، ولا اختلاف معاني، ولا اختلاف ألفاظ.

فالاختلاف يشمل:

اختلاف في الألفاظ: بأن يكون بعضه فصيحًا بليغًا والآخر ليس كذلك.

---

(١) المثل السائر، ٧١/١.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٠٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط، ٢٩٥/٢، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ٥٠٧/١.

اختلاف في النظم: بأن يكون بعضه جزل والآخر ليس كذلك.

اختلاف في المعنى: بأن يدعو بعضه إلى أمر ويدعو بعضه إلى آخر.

فلو لم ترد لفظة الاحتراس **{بِالْإِثْمِ}** لرأينا الاختلاف في المعنى، إذ كيف يجعل القرآن العزة من صفات المؤمنين في موضع، وينهى عنها في آخر.

ثانيها: الجمع بين الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض: إن لفظة الاحتراس تمثل طريقة من طرق الجمع بين الآيات وهي الإطلاق والتقييد، فما أطلق في العزة المحمودة في قوله –تعالى–: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}**(١)، وقوله: **{فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}**(٢)، وقوله: **{أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}**(٣)، قيد بلفظة الاحتراس **{بِالْإِثْمِ}**، وجمع بين الآيات، على اعتبار أن العزة تكون محمودة وهو الأصل، ومذمومة، فإطلاقها على الأصل، وتقييدها على العزة المذمومة.

ثالثها: رفع اللبس والتقريب للفهم: فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا عناية له أنها المحمودة(٤)، فإذ بلفظة الاحتراس، ترفع اللبس، وتقرب المعنى للفهم، ويتضح بها المعنى، وتمثل فنًّا من أهم فنون التفسير وهو الجمع بين الآيات، والتوفيق بين المعاني.

الشاهد الرابع: رفع الاشتراك وبيان المعنى:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}**(٥)، فإن لفظة الاحتراس **{بِدَيْنٍ}**، وذلك أن المداينة قد تكون معاطاة بالدين، وقد تكون مجازاة كما في قولهم: كما تدين تدان، فإذ بلفظة الاحتراس تعين المراد، وتدفع ما قد يتوهم خلافه.

(١) سورة المنافقون: من الآية ٨.
(٢) سورة النساء: من الآية ١٣٩.
(٣) سورة المائدة: ن الآية ٥٤.
(٤) ينظر: الدر المصون، ٥٠٧/١، بتصرف.
(٥) سورة البقرة: من الآية ٢٨٢.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: تعرض لمقصد الاحتراس من المفسرين: البغوي، وابن عطية –فيما نقله عنه ابن عرفة–، والبيضاوي، وأبو حيان، ومحي الدين زاده[١]، وحاصل كلامهم: أن لفظة **{تَدَايَنْتُمْ}** من المشترك فقد ترد بمعنى التداين، أو المجازاة أي جازى بعضهم بعضًا، فإذ بلفظة الاحتراس **{بِدَيْنٍ}** ترفع توهم معنى المجازاة، وتعين أن المراد منها الدين المؤجل أو الحال.

ثالثًا: الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس: إزالة الاشتراك وتعيين المراد:

إذا كان الاشتراط اللفظي في القرآن الكريم ظاهرة من أعظم ظواهر الإعجاز البياني، حيث إن الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا وأكثر وأقل، ولا يوجد في كلام البشر ذلك[٢]، فإني أقرر أن نوعًا آخر من الإعجاز البياني يجب أن ينتبه إليه وهو الاحتراس القرآني، فإنه يرفع هذا الاشتراك، ويبعد كل معنى قد يتوهم في الآية، فيعين المراد، ويحفظ اللفظة من تداخل المعاني.

وبيان ذلك: أن لفظة التداين من المشترك اللفظي، وترد على معانٍ، أهمها:

المعاملة بالدين: يقال: داينت فلانًا: عاملته بالدين[٣]، ودنت الرجل: أقرضته[٤]، وتدين الرجل: إذا استدان[٥].

المجازاة: يقال: دنته بما صنع: جزيته، ومنه "كما تدين تدان"[٦]، ومنه يوم الدين أي: الجزاء، وفي المثل "كما تدين تدان" أي كما تجازي تُجَازى، أي تجازى بفعلك وبحسب ما عملت، ومنه قوله –تعالى–: **{أَئِنَّا لَمَدِينُونَ}**[١] أي مجزيون محاسبون[٢].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي، ٣٤٨/١، تفسير ابن عرفة، ٣٦/١، تفسير البيضاوي، ٣١١/١، البحر المحيط، ٩٦/٣، حاشية محي الدين زاده على تفسير البيضاوي، ٧٦٩/٢، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ١١٦/١، بتصرف، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري، ١٤٤/١.
(٤) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ٣٦٠/٢، الناشر: عالم الكتب.
(٥) لسان العرب، ١٦٤/١٣، مادة "دين".
(٦) أساس البلاغة، ١٤٤/١.

القضاء: ومنه قوله –تعالى–: {**وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ**}[٣][٤].

الحساب: ومنه قوله –تعالى–: {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**}[٥][٦].

الطاعة: يقال: دانوا له، أي: انقادوا وأطاعوا[٧].

الإسلام: وقد دِنت به[٨]، أي أسلمت.

فلفظة الاحتراس دفع لهذا الاشتراك، وبيان للمراد منه بدلاً من انصراف الذهن إلى معانٍ متعددةٍ، فرفع التوهم، وعين المراد.

الشاهد الخامس: دقة التصوير أعلى مراتب البيان:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**}[٩]

فإنه لو اكتفي بقوله –تعالى–: {**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ**} لتوهم أنهم ليسوا تحته، والعرب تقول: "انهدم على فلان بناؤه وليس تحته"[١٠] فأتت لفظة الاحتراس {**مِنْ فَوْقِهِمْ**} فرفعت هذا التوهم، وأزالت هذا الشك، وأثبتت أنهم كانوا تحته، وأن البيان قد انهدم عليهم.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: تعرض لمقصد الاحتراس من المفسرين: الواحدي، وابن عطية، والرازي، والخازن، وأبو حيان، والزركشي، والشوكاني، وابن عاشور[١١]،

(١) سورة الصافات: من الآية ٥٣.
(٢) لسان العرب، ١٦٤/١٣، "دين".
(٣) سورة الذاريات: الآية ٦.
(٤) المحيط في اللغة، ٣٦٠/٢.
(٥) سورة الفاتحة: الآية ٤.
(٦) لسان العرب، ١٦٤/١٣، "دين".
(٧) المحيط في اللغة، ٣٦٠/٢.
(٨) لسان العرب، ١٦٤/١٣، "دين"، بتصرف.
(٩) سورة النحل: الآية ٢٦.
(١٠) البحر المحيط، ٢٢٩/٧.
(١١) ينظر: الوجيز، الواحدي، ٤١٩/١، المحرر الوجيز، ١٦٢/٤، تفسير الرازي، ٣٧٦/٩، تفسير الخازن، ١٧٢/٤، البحر المحيط، ٢٢٩/٧، البرهان في علوم القرآن، ٦٧/٣، فتح القدير، ٢١٤/٤، التحرير والتنوير، ٤٦٥/٥.

وحاصل كلامهم: أن كثيرًا من السقوف يكون أرضًا لقوم وسقفًا لآخرين، فإذ بلفظة الاحتراس ترفع احتمال أن يكون السقف من تحتهم، لأن اللفظة تلزم أنهم كانوا تحته، وعليهم وقع.

ثالثًا: الإعجاز البياني في لفظة الاحتراس: تصوير المعنى تصوير المُشاهد:

شبه ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ) العلاقة بين المعنى واللفظ، بالصورة والكسوة، فشبه المعنى بالصورة، واللفظ بالكسوة، فإن لم نقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس، فقد بُخست حقها، وتضاءلت في عين مبصرها(١).

وعند توافقهما يشتركان في إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عيانًا(٢).

التصوير وإعجاز النظم: جعل الإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) التصوير مرادفًا لنظم الكلام، فليس الغرض بنظم الكلِم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل.. وكل ما يقصد به التصوير(٣).

التصوير أعلى مراتب البيان: فالبيان "ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوُّره تَصَوُّر المُشَاهد"(٤)، وهي سمات لا يمكن أن ترى مجتمعة إلا في القرآن الكريم.

ومن ذلك: لفظة الاحتراس **{مِنْ فَوْقِهِمْ}** فقد ساهمت في تصوير المعاني من خلال الاستعارة بجعل المعنى مجسدًا حيًّا كأنه يتحرك تراه الأعين، وبيان ذلك: أن

(١) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ٢١٦/١، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١ه.
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ٨٨/١، بتصرف، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠ه.
(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص١٣٢.
(٤) ينظر: إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٢٤٣.

الآية الكريمة تشتمل على استعارة تمثيلية، فقد شبَّه حال الماكرين المبطلين بحال قوم بنواْ بنيانًا شامخًا، ودعموه بأساطين البناء وقواعده، فتهدم السقف من فوقهم وهوى عليهم وهم تحته، وهي استعارة جعلت المعاني في أبهى حلة، وأرفع قدر، مع ما فيها من تحريك النفوس، والتأثير على القلوب، ولو عُبِّر عن المعنى بغير هذه الاستعارة وبغير لفظة الاحتراس ما رأينا هذه الروعة والتصوير للمعاني، فهي أرقى ما يصل إليه التمثيل في وضوح الفكرة، وقوة المعنى، والتأثير على النفوس، وتصوير المعنى كأنه مشاهد(١).

لقد منحت اللفظة وضوحًا في المعنى، وحملت بداخلها جمالاً يميزها، وحسنًا تنفرد به، مع ما أفادته الاستعارة حسنًا في المعنى، ووقعًا في نفس المخاطب، فقد عرضت المعنى مجسدًا وواضحًا، مع الإبداع في التصوير، فجمعت بين الإيضاح والتصوير والتأثير.

وحاصل القول: أن الاحتراس القرآني يفيد المتخصص في علم التفسير في علوم أهمها: الجمع بين الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض، ورفع الاشتراك، ودفع توهم المجاز بلا قرينة، مع ما يفيده من مظاهر إعجازية أهمها: دفع التوهم، وكمال المعنى، والتوازن بين اللفظ والمعنى، وكمال التعبير، ودقة التصوير للمعاني كأنها مشاهدة، وهي أعلى درجات الإعجاز في النظم القرآني.

(١) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين درويش، ٢٩٠/٥، بتصرف.

المبحث الثالث

الاحتراس في الفواصل القرآنية

تعد الفاصلة القرآنية عامة وفي الاحتراس خاصة من أدق مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ولبيان ذلك أقف مع المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول: الفاصلة والألفاظ ذات الصلة

الفاصلة: لغة: الحاجز بين الشيئين، تقول: فصل بينهما فصلاً، وانفصل الشيء، أي: قطعته فانقطع، والفصل: القضاء بين الحق والباطل[١].

واصطلاحًا: عرفها الزركشي بأنها: كلمة آخر الآية[٢].

وإذا كان الإمام الزركشي قد حَدَّ الفاصلة بأنها الكلمة الأخيرة في الفقرة، فقد رأى البعض أنها تشمل الجملة الختامية كلها، ومنهم الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) الذي عرف الفواصل بأنها "حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة، والأسجاع عيب، لأن الأسجاع المعاني تابعة لها، والفواصل تابعة للمعاني"[٣]. فالفاصلة آخر الآية وقد تكون كلمة أو جملة يفهم بها المعنى، ولعل العلامة الباقلاني في قوله "والأسجاع عيب" لا يقصد العموم، وإنما الغالب، وإلا فالسجع منه ما هو محمود، ومنه ما هو معيب.

- **الفواصل ورؤوس الآي:**

نقل الزركشي عن الإمام أبي عمرو الداني الفارق بين الفواصل ورؤوس الآي، حاصله: أن الفاصلة: هي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكن رؤوس آي وغيرها، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين[٤].

---

(١) لسان العرب، ٥٢١/١١، "فصل".
(٢) البرهان، ٥٣/١.
(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني، ٢٧٠/١.
(٤) البرهان، ٥٤/١، بتصرف.

فالفاصلة كلام منفصل عما بعده، وقد يكون رأس آية وقد لا تكون، ورأس الآية نهايتها التي يأتي بعدها علامة الفصل بين آية وآية، فالفاصلة تعم النوعين.

- **التذييل:** لغة: مصدر "ذَيَّلَ" للمبالغة، وهي لغة: جعل الشيء ذيلاً للآخر(١).

واصطلاحًا: عرفها السيوطي بأنها: أن يؤتى بجملة عقب جملة؛ والثانية تشتمل على المعنى الأول لتأكيد منطوقه أو مفهومه ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرر عند من فهمه، نحو **{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}**(٢)(٣).

فالفاصلة: كلام منفصل عما بعده، وقد تكون رأس آية وقد لا تكون.

رأس الآية: نهايتها التي توضع بعدها علامة الفصل بين آية وأخرى.

التذييل: جملة ترد بعد جملة لتأكيد المعنى أو تقريره.

المطلب الثاني: الفاصلة والإعجاز البياني

لم يعتبر الإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الفواصل من الإعجاز، على اعتبار أن العرب اقتدروا عليها، ولم يكن التحدي بها(٤).

وقد التمس الدكتور فضل عباس (ت ١٤٣٢هـ) العذر له قائلاً: "إن عبدالقاهر ينفي أن يكون وزن الفاصلة وجهًا من وجوه الإعجاز، أما اختيار الكلمة في الفاصلة كأن تختار كلمة يفقهون في الآية، ويعلمون في آية أخرى، فهذا يدخل في النظم الذي هو لب الإعجاز"(٥).

وعند التحقيق فإن الفاصلة من أهم وجوه الإعجاز البياني لأنها لم ترد مراعاة لرؤوس الآي فقط، أو لمجرد الشكل والمبنى، وإنما لوجوه أهمها:

(١) السابق، ٦٨/٣.
(٢) سورة فاطر: من الآية ١٤.
(٣) الإتقان، ٣١٤/١.
(٤) دلائل الإعجاز، ٣٨٧/١، بتصرف.
(٥) إعجاز القرآن الكريم، د. فضل عباس، ص٨١.

إفهام المعاني: فبلاغة الفواصل أنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها[١]، وحسن الإفهام لا يكون إلا بحسن الإبانة[٢]، وأوقف بعض العلماء كالقنوجي (ت ١٣٠٧هـ) إفهام المعنى على معرفة الفواصل، فقال: "لا يتأتى لأحد معرفة معنى القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل"[٣].

المناسبة: يقرر الزركشي أن "إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدًا، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرًا عظيمًا"[٤]، ولذلك فإن إعجاز الفواصل في تمكنها من موقعها، بحيث تراها متعمقة في تأكيد معنى الآية، بل هي جزء أصيل منها ولا ينفك عنها.

الحسن: إذا كانت نهاية الكلام آخر ما يبقى في السمع، فإن الفواصل في النهاية لا يأتي أحسن منها، وهذا يحتاج لإعمال فكر وروية، ومعرفة العلاقات بين الفواصل والجو العام للآية.

التأثير: إذا كانت البلاغة "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[٥]، فإن الفاصلة بما فيها من حسن وإبانة تمثل إعجازًا خاصًا في التأثير على النفس.

إعجاز: إن توافق الفواصل مع مناسبة الآيات يمثل إعجازًا في النظم، وبيان ذلك: أن القرآن الكريم لا يحمِّل المعنى ما لا يناسبه من الألفاظ مراعاة للفواصل، وإنما لتحقيق أغراض في النظم لا تتحقق إلا بها، إنه إعجاز خاص يمثل أعلى أنواع التوافق

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٩٩.
(٢) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، أ. د محمد محمد أبو موسى، ص١٤٤، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية.
(٣) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، القنوجي، ٥٧٠/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
(٤) البرهان، ٦٠/١.
(٥) إعجاز القرآن، الباقلاني، ١١/١.

بين الشكل والمضمون، والمطلع والختام، والمعاني والمناسبة، والتأثير والحسن، حتى إن المتأمل في الفواصل يرى فيها إعجازًا من أي وجه نظر إليه.

المطلب الثالث: شواهد تطبيقية على الاحتراس في الفواصل القرآنية

إذا كانت الفاصلة وجهًا من أدق وجوه الإعجاز البياني، فإن الاحتراس في الفواصل أدقها وأعجبها في الإعجاز لما فيه من التوافق التام بين المعنى، وتمامه، ودفع الخلل عنه، والمناسبة، والحسن، وبيان ذلك من خلال الشواهد التالية:

الشاهد الأول: المناسبة والجرس الموسيقي:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[(١)]

لفظة الاحتراس في الفاصلة **{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** وهو احتراس ملازم لنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، **فائدته:** أن كل لذة معرضة للفناء والزوال، فلو لم يرد هذا الاحتراس في الفاصلة لتوهم أن نعيم أهل الجنة من هذا النوع، فلما أتى به أفاد –تمام المعنى– أن كل نعيم زائل إلا نعيم أهل الجنة، فتم المعنى واكتمل، ودفع ما قد يتوهم خلافه.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: نصَّ الطاهر بن عاشور على مصطلح الاحتراس والغرض منه، فقال: "**{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} احتراس** من توهم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا، لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال، وذلك يُنَغِّصُهَا عند المنعم عليه"[(٢)].

وكذلك الإمام الراحل الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي –شيخ الجامع الأزهر–، إذ يقول: "فجملة **{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** جيء بها على سبيل **الاحتراس** من وهم الانقطاع"[(٣)].

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ١٧٩/١.
(٣) الوسيط، ٤٦/١.

وأكثر المفسرين اعتنوا بمقصد الاحتراس دون ذكر مصطلحه[١].

وحاصل مقصد الاحتراس عندهم أن الثواب بالخير والشر لا يدوم، فأتى الاحتراس فأفاد أنهما مقيمان على أهلهما أبدًا بلا انقطاع.

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في الاحتراس:

تمام المعنى وكماله: أفاد لفظ الاحتراس في الفاصلة تمام المعنى، وكماله، بأن تنعمهم في الجنان تنعم كمال لا نقص فيه، ودوام لا انقطاع معه، حتى قال النيسابوري: "**{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** إتمامًا للنعمة والحبور، وتكميلاً للبهجة والسرور"[٢].

مراعاة المناسبة: وضع ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) مصطلح المناسبة في الفاصلة، ووضع فروعه وأقسامه، وذكر أن المناسبة على ضربين لفظية ومعنوية، وقال عن المعنوية "أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسب معنى دون لفظ"[٣].

وبيان ذلك: أنه –سبحانه– لما ذكر أنواع النعيم في الجنان، ناسب أن يذكر أنه نعيم لا ينفد، فتوافق الاحتراس مع سياق الآية فتمكن في النفس.

التوافق بين اللفظ والمعنى: أدت الفاصلة –بما فيها من احتراس– دورًا هامًا في التوافق والانسجام بين اللفظ والمعنى، وهو من أدق وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

الجرس الموسيقي: لقد حقق التوافق بين اللفظ والمعنى من جانب، والمناسبة من آخر، جرسًا موسيقيًا، جعل الفاصلة أهم ما فيه، وآخر العهد بالسماع، حتى كأنها جمعت ما قبلها وزادت عليه، بجرس بديع، على حد ما قال الدكتور دراز: "إنك تنتقل

(١) ينظر: تفسير البغوي، ٧٤/١، تفسير ابن كثير، ٢٠٦/١١، فتح القدير، ٥٩/١، روح المعاني، ٢٣٣/١.
(٢) تفسير النيسابوري، ١٣٥/١.
(٣) سر الفصاحة، الخفاجي الحلبي، ص١٦٩.

في القرآن بين أسباب وأوتاد وفواصل، على أوضاعٍ مختلفةٍ، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء"[١].

إنه جرس أضفى على الفواصل سحرًا بيانيًا يجمع بين التناغم والتناسق، مع تمام المعنى، وقوة التأثير.

الشاهد الثاني: تمام المعنى وحسن السبك:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢] ولفظ الاحتراس في الفاصلة **{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** فإن المتوقع بعد الحديث عن المغفرة أن تختم بقوله **{غفور رحيم}**، ولو ختمت الفاصلة بذلك لتوهم أنها مغفرة عن عجز، أو مغفرة تنافي الحكمة، فاحترس بذلك وأتت الفاصلة بقوله **{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** لإثبات أنها مغفرة مع كمال القدرة، ولا معترض عليها من أحد لأنها تمام الحكمة.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس:

نص كثير من المفسرين على مصطلح الاحتراس في الفاصلة وأهميته في تمام المعنى، فيقرر الزركشي أن الوصف بالحكيم احتراس حسن، على معنى: وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض في ذلك، والحكمة ما فعلته[٣].

ووصف السيوطي –كذلك– الاحتراس بالحسن[٤].

ونص شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) على مصطلح الاحتراس في حاشيته على اعتبار أن ترك الجاني قد يكون لعجز في القدرة، أو إهمال ينافي الحكمة، فبيَّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة، والحكمة البالغة[٥].

---

(١) النبأ العظيم، ص١٠٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.
(٣) البرهان، ٨٩/١، بتصرف.
(٤) الإتقان، ٣٥٠/١.
(٥) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، ٥٨٩/٣، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

ونقله بنصه القاسمي في تفسيره[١].

ونصَّ عليه الألوسي وذكر أن لفظ الاحتراس في الفاصلة دفع توهم ما يتوهم بقوله: {**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**}[٢].

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في الاحتراس:

دفع التوهم: فلو لم يرد هذا الاحتراس في الفاصلة لتوهم في المعنى ما ليس منه، فأزال الاحتراس التوهم، ليستقيم المعنى المراد.

تمام المعنى: أسهمت لفظة الاحتراس في تمام المعنى، وأثبتت أن مغفرة الله لا تكون إلا عن تمام القدرة، ولا معترض لأحد عليها لأنها عنوان الحكمة.

المناسبة: ذكر ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) أن فواصل الآي في القرآن الكريم "تجري كلها على قاعدة المناسبة"[٣].

وقد علل الإمام الرازي توافق الفاصلة مع مناسبة الآية، أن **(العزيز الحكيم)** هاهنا أولى من الغفور الرحيم، لأن كونه غفورًا رحيمًا يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج، والحكمة فيهما لا يوجبان المغفرة، فختام الفاصلة بالعزيز يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد[٤]، فحققت الفاصلة تمام الملائمة بين المناسبة والمعنى المطلوب إثباته.

السبك بين المعنى والفاصلة: ويراد به الترابط الحسن والتماسك المحكم بين معنى الآية ولفظ الاحتراس في الفاصلة، بحيث لا يستقيم المعنى، ولا يدفع التوهم، ولا يشعر القارئ بهذا السبك إلا بألفاظ الاحتراس.

(١) محاسن التأويل، ٢٦٣/٣.
(٢) روح المعاني، ٦٩/٤، بتصرف.
(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر البغدادي، ١٧٦/١، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م.
(٤) تفسير الرازي، ٨٣/١٢، بتصرف.

الشاهد الثالث: التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}[١]

والاحتراس في الفاصلة **{رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** فإنها لو لم تذكر لتُوُهِّمَ أن السحرة قد آمنوا بفرعون، لأنه القائل **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}**[٢]، فإذ بلفظة الاحتراس تدفع هذا التوهم، وتقطع بالمعنى المراد.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: نص كثير من المفسرين على أهمية هذا الاحتراس في الفاصلة، وعبروا عنه بعبارات "لئلا يتوهم"، "قد يوهم"، "نفي توهم من يتوهم"[٣]، وحاصل تفسيرهم: أنه لولا هذا الاحتراس في الفاصلة لتوهم أنهم أرادوا فرعون، ولو اقتصرت الفاصلة على موسى –عليه السلام– لبقي للتوهم رائحة لأنه كان ربَّى موسى –عليه السلام– في صغره، وقدم هارون في محل آخر[٤] لأنه أدخل في رفع التوهم، أو لأجل الفاصلة، أو لأنه أكبر سنًّا منه، وقدم موسى هنا لشرفه أو للفاصلة، كما فيها من نفي توهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله –تعالى–.

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في الاحتراس:

أشار السيوطي إلى كلام ابن أبي الإصبع، وحاصله: أن فواصل القرآن لا تخرج عن أحد أربعة أشياء: التمكين، التوشيح، الإيغال، التصدير[٥].

وأرى أن الأربعة قد اجتمعت في هذا الاحتراس البديع:

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٢١-١٢٢.
(٢) سورة النازعات من الآية ٢٤.
(٣) ينظر: الكشاف، ١١/٥، تفسير الرازي، ٤٧٥/١١، تفسير البيضاوي، ٣٠١/٢، تفسير النسفي، ٤٦٩/٢، تفسير الخازن، ٤٩/٥، تفسير أبي حيان، ٤٢٠/٥، تفسير ابن عادل، ٤٧١/٧، تفسير أبي السعود، ٣٠/٣، فتح القدير، ٧٤/٣، روح المعاني، ٣٠٩/٦، التحرير والتنوير، ٤١٦/٥.
(٤) كما في قوله –تعالى-: {بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} سورة: طه، من الآية ٧٠.
(٥) الإتقان، ٣٤٧/١.

أما التمكين: فهو أن تأتي الفاصلة "متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة، ولا قلقة، متعلقًا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًّا، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم"(١).

والملاحظ أن لفظة الاحتراس في الفاصلة مكنت المعنى أيما تمكن، فلولاها لضاع المعنى، ولتوهم فيها أن المراد فرعون، فإذ بالفاصلة تمكن المعنى، وتدفع الخلل عنه، وتمنع الاضطراب في فهمه.

التوشيح: وهو أن يتقدم على الفاصلة "معنى يدل عليها"(٢).

والاحتراس قد تقدم عليه ما يدل إليه، ويمهد له، فإذ بالفاصلة تمكن للمعنى المتقدم، وتضبطه، وتمنع القلق والاضطراب في فهمه.

الإيغال: وهو "أن يستكمل المتكلم معنى كلامه قبل أن يأتي بمقطعه، فإذا أراد الإتيان بذلك أتى بما يفيد معنى زائد على معنى ذلك الكلام"(٣).

والاحتراس في الآية المعنى قبله مستكمل، فإذ بالفاصلة تفيد معنى يجمع بين الزيادة ومنع التوهم.

التصدير: هو "أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت في أول الآية، ويسمى – أيضًا– رد العجز على الصدر"(٤).

والاحتراس هنا "رب موسى وهارون" رد فيه العجز على الصدر، فاللفظة "رب" تقدمت بعينها في الصدر، وكررت في العجز لأنها لب القضية، ومحور الاهتمام فيها، فأثبتت أن الرب المقصود هو رب العالمين لا فرعون كما قد يتوهم، فإذ بلفظة

(١) ينظر: بديع القرآن، ابن أبي الإصبع، ص٨٩، الناشر: نهضة مصر، الإتقان، ٣٤٧/١.
(٢) ينظر: بديع القرآن، ص٨٩، البرهان، ٩٥/١.
(٣) ينظر: بديع القرآن، ص٩١، البرهان، ٩٦/١، الإتقان، ٣١٤/١.
(٤) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع، ص١١٦.

الاحتراس في الفاصلة تجمع بين التمكن في المعنى، ومنع الخلل في الفهم، وتقدم عليها ما يدل عليها، واستكملت معنىً زائدًا لا غنى عنه، ورد فيها العجز على الصدر، فإذ بلفظة واحدة من الاحتراس في الفاصلة جمعت كل مظاهر البيان التي تجمع في الفواصل كلها.

الشاهد الرابع: التأكيد على التأكيد للمبالغة وإزالة الإشكال:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}(١)، فالآية تشتمل على احتراس بعد احتراس، الأول في لفظة "**كُلُّهُمْ**" فإنها لو لم تذكر لتوهم أن السجود كان من بعضهم، فإذ بلفظة الاحتراس تزيل هذا التوهم، وتقطع بالمعنى المراد، والاحتراس الثاني في لفظة "**أَجْمَعُونَ**" فإنها لو لم تذكر لتوهم أنهم سجدوا على مراحل، فإذ بها ترفع التوهم، وتقطع بأن الملائكة سجدوا جميعًا مرةً واحدةً.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: نص كثير من المفسرين على مقصد الاحتراس وأنه أزال ما قد يتوهم في الآية وليس منها، وأنه احتراس بعد احتراس الأول في لفظة "**كُلُّهُمْ**" التي هي للإحاطة، والثاني "**أَجْمَعُونَ**" للاجتماع(٢).

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في الاحتراس:

- **التأكيد بعد التأكيد لأغراض بلاغية بديعة:** عرج الزمخشري على الأغراض التي يفيدها التوكيد اللفظي فقال: "وجدوى التأكيد أنك إذا كررت، فقد قررت المؤكَّد، وما علق به في نفس السامع، ومكنته من قلبه، وأمطت شبهة ربما خالجته، وتوهَمْت غفلة وذهابًا عما أنت بصدده فأزلته"(٣) وهي أغراض جامعة مانعة تتفق مع أهم

(١) سورة الحجر: الآية ٣٠.
(٢) ينظر: بحر العلوم، ٤٤٥/٢، تفسير الرازي، ٣٠٥/٩، تفسير القرطبي، ٢٨٠/٤، تفسير البيضاوي، ٣٦٩/٣، تفسير النسفي، ٢٢١/٣، اللباب، ٤١/١٠، تفسير الشوكاني، ١٧٧/٤، التحرير والتنوير، ٤٧٧/٧.
(٣) المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، ص١٤٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

مقاصد الاحتراس، فإذ بالاحتراس في هذا الشاهد يجمع في التأكيد بعد التأكيد مظهرًا بيانيًا بديعًا يوجز في أمرين:

أولهما: المبالغة في الطاعة: –المبالغة في التعميم ومنع التخصيص– وهو ما عبَّر عنه البيضاوي بقوله: "أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص، وقيل: أكد بالكل للإحاطة، و "أجمعون" للاجتماع، للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة واحدة"(١). فحقق التأكيد بعد التأكيد مبالغة في إثبات هذه الطاعة.

ثانيهما: إزالة أي التباس يعلق في نفس السامع أنه ربما خالف أحد، أو لم يسجدوا دفعة واحدة، فأتى الاحتراس في الفاصلة رافعًا لأي توهم، في صورة بيانية بديعة عنوانها: التوكيد اللفظي في الاحتراس للمبالغة وإزالة الإشكال.

الشاهد الخامس: حسن البيان واتساق الألفاظ وائتلاف المعاني:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}(٢) إذ لو اكتفى بالآية الأولى ولم يرد الاحتراس في الفاصلة "**وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**" لتواكل الناس على مغفرته سبحانه، وتناسوا عذابه، ولتوهم أن المغفرة مطلقة دون عقاب، فأتى الاحتراس فدفع الإشكال وقطع بالمعنى المراد في توافق بديع وتناسق معجز.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: تعرض بعض المفسرين لغرض الاحتراس ومقصده وبينوا أن الغرض منه ألا يغتر برحمته –سبحانه– فإنه –عز وجل– مع عظيم رحمته أليم العذاب، ليكونوا راجين خائفين(٣).

(١) أنوار التنزيل، ٣٦٩/٣.
(٢) سورة الحجر: الآيتان ٤٩-٥٠.
(٣) ينظر: الكشاف، ٣١٤/٣، تفسير القرطبي، ٢٢٧/٧، تفسير البيضاوي، ٣٠٢/٣، تفسير النسفي، ١٤١/٢، نظم الدرر، ٤١٨/٤، تفسير الشوكاني، ١٨٢/٤، روح المعاني، ٤٣٤/١٦.

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في الاحتراس:

- **حسن البيان:** وذلك بالإبانة عن المراد بألفاظ سلسة بليغة ودلالات بديعة.
- **تكامل المعنى:** فبدون الاحتراس في الفاصلة لا يتكامل المعنى، بل يدخله التوهم، فإن انفرد أحد المعنيين بالذكر دون الآخر –الرجاء – الخوف– هلك الإنسان(١)، فبالاحتراس تكامل المعنى ليبقى العبد بين الرجاء والخوف(٢).
- **قوة التأثير:** بقوة بيان الألفاظ بما يحصل بها من الدهشة للسامع، لما يذهب به حيرته، ويكشف له عن معانٍ بديعةٍ غائبةٍ عنه، بأسلوبٍ بديع يتمثل في الاحتراس في الفواصل، وهذا ما عبر عنه النسفي بقوله: ".. تقريرًا لما ذكر وتمكينًا له في النفوس"(٣).
- **ترجيح لمعنىً على آخر:** للاحتراس في الفواصل دور هام في ترجيح أحد المعاني على الأخرى، كالآية التي معنا، وهو ما عبر عنه الألوسي بقوله: "وفي توصيف ذاته –تعالى– بالمغفرة والرحمة دون التعذيب، حيث لم يقل –سبحانه– وإني أنا المعذب المؤلم، ترجيح لجانب الوعد على الوعيد"(٤).

ولو لم يغاير القرآن في ألفاظ الاحتراس في الفاصلة لفهم أن الوعد والوعيد على السواء، فإذ بالاحتراس في الفواصل يجمع من أساليب البيان الشاملة للألفاظ ودقتها، والمعاني وروعتها، والإشكال ودفعه، والحسن، وقوة التأثير، مع تمكن المعنى في النفس، وإزالة ما يلحق به من إشكال.

الشاهد السادس: الحبك القائم على علاقة الإجابة عن سؤال مقدر:

أولاً: موطن الاحتراس: قوله –تعالى–: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}(٥)، فلو لم ترد لفظة الاحتراس في

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٢٢٧/٧.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير، ٥٣٩/٤.
(٣) تفسير النسفي، ١٤١/٢.
(٤) روح المعاني، ٢٣/١٠.
(٥) سورة طه: الآيتان ٥١-٥٢.

الفاصلة "**لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى**" لتوهم أن التقييد للعلم في الكتاب للتحرز من النسيان، فأتى الاحتراس فدفع هذا التوهم لتنزه الله –سبحانه– عن ذلك.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: نص بعض المفسرين على مصطلح الاحتراس، وتعرض الأكثرون لغرضه والمقصد منه، وممن نص على المصطلح أو بمرادفاته، الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) حيث بين أن قوله "**لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى**"، "..احتراس أيضًا، لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان، والله –تعالى– منزه عنه"(١).

ونص على المصطلح –كذلك– القونوي (ت ١١٩٥هـ) حيث قال: "**لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى**" تكميل واحتراس، لدفع ما عسى أن يتوهم أن إثباتها في اللوح لاحتياجه إليه، لاحتمال الذهاب، كما في المخلوق، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا"(٢).

وأغلب المفسرين على ذكر المقصد منه، وأن قوله "**فِي كِتَابٍ**" يوهم احتياجه –سبحانه– في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب، وهذا وإن كان غير واجب لا محالة، ولكنه لا أقل من أن يوهمه من أول الأمر، ولا سيما للكافر، فأزال الاحتراس في الفاصلة هذا التوهم، وأكد الغرض من الكلام وهو تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله –سبحانه– لا يزل منها شيء عن علمه(٣).

ثالثًا: مظاهر الإعجاز البياني في الاحتراس:

الحبك: وهو تماسك الألفاظ مع معانيها في موضوع واحد وسياق واحد، بأن تكون الجملة الأولى ممهدة للثانية، والثانية رافعة لتوهم تثيره الجملة الأولى، وهذا الحبك يقوم على علاقة: الإجابة عن سؤال مقدر، فكأن الفاصلة أجابت عن سؤال مقدر مؤداه: هل إثبات العلم في كتاب عن نسيان كالمخلوقين؟، فأجاب الاحتراس في الفاصلة عن

(١) حاشية الشهاب، ٣٥٧/٦.
(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، القونوي، ٣٦٤/١٢، دار الكتب العلمية.
(٣) ينظر: تفسير الرازي، ٥٩/٢٢، روح المعاني، ٥١٧/٨، محاسن التأويل، ١٣/٥، تفسير النيسابوري ٥٥٢/٤، نظم الدرر، ٢٢٣/٥، بتصرف.

السؤال، ورفع الإشكال بأن الله لا يغيب عنه شيء، ولا يترك الكافر فيعاقبه أو المؤمن فيجازيه.

ويقف الباحث بعد هذا العرض على نقاط أهمها:

- الاحتراس في الفواصل القرآنية من أدق مظاهر الإعجاز البياني، لما حقق من دلالات وأغراض ومقاصد وحسن ترى فيها الإعجاز من أي وجه نظرت إليه.
- الاحتراس في الفواصل أكسب المعنى جمالاً، واللفظ حسنًا، وإنما ابتدأت بالمعنى، لأن الفاصلة تجمع بين جوهر المعنى أولاً ثم جمال اللفظ ثانيًا.
- لولا الاحتراس في الفواصل لاختل المعنى ووقع الإشكال.
- من أخرج الفواصل عامة والاحتراس فيها خاصة من الإعجاز البياني يرد عليه عند التطبيق على الشواهد القرآنية، فالاحتراس في الفواصل يؤكد بما لا يدع مجالاً لشك أنها تمثل مظهرًا إعجازيًّا بيانيًّا يجمع فيه بين المعنى واللفظ، والإيقاع الصوتي، والتأثير النفسي، والحبك، ومراعاة السياق، فكأني بالفاصلة –والاحتراس فيها– قد جمعت مظاهر الإعجاز البياني تحت طياتها حتى جعلت ذروة الإعجاز البياني، وأدق وجوهه، وأهم مقاصده.

المبحث الرابع

الاحتراس بتغيير حركة الإعراب

إن العدول في القرآن الكريم لصيغ التراكيب عامة، وحركة الإعراب خاصة، له أسباب تقتضيه، وأغراض تتحقق به، وهو من أدق مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ولبيان ذلك أقف مع المطلبين التاليين:

المطلب الأول: العدول في صيغ التراكيب والإعجاز البياني

يرى ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وأنه ضرب من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهمًا، وأغمضها طريقًا، لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتش في دفائنها(١).

والعدول في صيغ التراكيب عدول شامل، يشمل العدول من صيغة إلى صيغة، ومن أسلوب إلى أسلوب، أو استبدال كلمة بأخرى، أو كان تناوبًا بين حروف الجر، أو إيثارًا لبنية على أخرى، أو تركيبًا على آخر، وأهم ما في ذلك العدول في الإعراب من وجه إلى آخر(٢).

وإنما كان العدول النحوي من أدق أنواع الإعجاز البياني لما له من الحفاظ على المعنى، ومنع اللبس، وحمل المخاطب على التأمل، وإعمال الذهن، والتدبر.

شواهد تطبيقية من آي الذكر الحكيم:

الشاهد الأول: عدول من حرف إلى حرف مراعاة للمعنى، وذلك في قوله – تعالى–: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ص١٤٥، بتصرف.
(٢) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز، يحيى بن حمزة العلوي، ص٢٦٥، بتصرف، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ}[١]، فعدل عن اللام إلى حرف الوعاء في الأصناف الأربعة الأخر إيذانًا بأن أقدامهم أرسخ في الاستحقاق للصدقة، من حيث كانت "في" دالة على الوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء[٢]، وبمثله قرر الزمخشري[٣].

الشاهد الثاني: عدول عن الجملة الفعلية للجملة الاسمية:

ومنه قوله –تعالى–: **{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ}**[٤]، برفع "**النُّجُومُ**" والظاهر أنها معطوفة على منصوب، ويقرر أبو السعود أن قوله **{وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ}** مبتدأ وخبر، أي: سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها مسخرات لله، وحيث لم يكن عَودُ منافعِ النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبله، لم يُنسَبْ تسخيرُها إليهم بأداة الاختصاص، بل ذُكر على وجه يفيد كونَها تحتَ ملكوتِه، فعدل عن الجملة الفعليةِ للجملة الاسمية[٥].

الشاهد الثالث: تغيير حركة الإعراب من الجزم إلى الرفع لإفادة النفي:

ومن ذلك قوله –تعالى–: {لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى}[٦] ف " **لَا**" ناهية، وكان حق الفعل بعدها الجزم. فلماذا رفع؟ والجواب: إما أنه رفع على الحال من الفاعل **{فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا}**[٧]، ويجوز أن يكون رفعه على القطع والاستئناف، أي: أنت لا تخاف دركًا[٨]، فأفاد التغيير في حركة الإعراب النفي بدل النهي .

(١) سورة التوبة: من الآية ٦٠.
(٢) الطراز، للعلوي، ص٢٢١.
(٣) الكشاف، ٤٢٨/٢.
(٤) سورة النحل: من الآية ١٢.
(٥) تفسير أبي السعود، ١٠٤/٤، بتصرف.
(٦) سورة طه: من الآية ٧٧.
(٧) سورة طه: من الآية ٧٧.
(٨) شرح المفصل، ابن يعيش، ٢٨١/٤، بتصرف، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

الشاهد الرابع: العدول من النصب إلى الرفع نفيًا للسببية:

ومن ذلك قوله –تعالى–: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}[١]، إذ يقرر العلوي (ت ٧٤٥هـ) سر العدول في "**فَتُصْبِحُ**" بالرفع، والقياس المطرد هو النصب، لأنا نقول: النصب إنما يكون إذا كان الأول سببًا للثاني، وهنا ليست الرؤية سببًا في كون الأرض تصبح مخضرة، فلهذا وجب رفعه للدلالة على أنها تكون مخضرة عقيب الإنزال للماء من غير إشارة إلى السببية[٢].

أو لأنه يمتنع نصب الفعل في جواب الاستفهام كما قرر الألوسي[٣].

الشاهد الخامس: التغيير في حركة الإعراب لبيان الأوغل في التعريف:

ومن ذلك قوله –تعالى–: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}[٤]، برفع "**قَوْلَ**" والنصب أقوى، لأنه إذا اجتمع اسمان فإن أولاهما بكونه اسم "**كَانَ**" أوغلهما في التعريف، ولما كان قوله "**أَنْ يَقُولُوا**" أوغل لأنه لا سبيل لتنكيره[٥] –بخلاف "**قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ**"– جعل اسمًا لـ "**كَانَ**" وخبرها مقدم.

الشاهد السادس: العدول مراعاة للمقدر:

ومنه قوله –تعالى–: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}[٦] فقد أتى بعد الواو منصوبًا وكان حقه الجر، وسببه إضمار فعل قبل "**وَلُؤْلُؤًا**" لأن المعنى: ويحلون لؤلؤًا[٧].

---

(١) سورة الحج: من الآية ٦٣.
(٢) الطراز، العلوي، ص٢٦٨.
(٣) روح المعاني، ١٩١/١٧.
(٤) سورة النور: من الآية ٥١.
(٥) الكشاف، ٤١٧/٤، بتصرف.
(٦) سورة فاطر: الآية ٣٣.
(٧) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١٣٩/١، الكشاف، ١٥١/٣.

ويتبين من خلال هذا العرض أن العدول في صيغ التراكيب القرآنية يمثل وجهًا إعجازيًا دقيقًا، وخفيًا، يحتاج إلى تأمل عميق للوقوف على أسراره، إنه نظم معجز لا ترى فيه عدولاً خاليًا عن الفائدة، أو عاريًا عن الحكمة، بل عدول يجمع بين دقة المعنى، وعمق التأمل، وإعمال الذهن للوقوف على أوجه الإعجاز فيه، ومن ثم فالوقوف عليه يحتاج إلى ملكات خاصة، وأدوات معينة، لخوض غمار هذا الإعجاز، وكشف اللثام عن لطائفه وبيانه.

المطلب الثاني: الاحتراس بتغيير حركة الإعراب

إذا كان الإعراب أساسًا في وضوح المعنى وتحديده، فيختلف المعنى باختلاف الحركة في آخر الكلمة، فإن نوعًا آخر من الإعجاز يتوقف على اختلاف حركة الإعراب وهو الاحتراس لإزالة اللبس، ورفع الغموض، وضبط المعنى المراد، وإذا كان ابن جني قد عقد في خصائصه بابًا سماه "باب: في تجاذب المعنى والإعراب"[١] فإن بابًا من أبواب الإعجاز اللغوي يتمثل في تغيير الحركة الإعرابية للاحتراس للمعنى التفسيري، ولولاه لوقع الخلط في المعنى، ولفهم الكلام على غير وجهه، وهاكم الشواهد من آي الذكر الحكيم لبيان نوع من أدق أنواع الإعجاز اللغوي "تغيير حركة الإعراب للاحتراس للمعنى المراد".

الشاهد الأول: الاحتراس لإفادة مطلق المعنى دون تقييده:

وذلك في قوله –تعالى–: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}[٢].

أولاً: موطن الاحتراس: "ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ" فقد جاء مرفوعًا، وكان الأصل جزمه عطفًا على سابقه، كما في قوله –تعالى–: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا**

(١) الخصائص، ٢٥٨/٣.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١١.

يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[1]، فغاير احتراسًا للمعنى، فالتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الاستمرار، فلو جزمت "**يُنْصَرُونَ**" عطفًا على سابقها لقيدت عدم انتصارهم بالقتال فقط، فلما غاير، وجاء الاحتراس –"**يُنْصَرُونَ**"– مرفوعًا أفاد إطلاق المعنى، وأنهم لا ينصرون قاتلوا أو لم يقاتلوا.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: نصَّ الطاهر بن عاشور على مصطلح الاحتراس في هذا الموطن[2]، بينما أكثر المفسرين على ذكر المقصد منه وإن لم يتعرضوا للمصطلح، وحاصل كلامهم: أن الأصل جزم المعطوف في قوله **{ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}** فعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، والفرق بين الرفع والجزم في المعنى، أنه لو جُزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم، والرفع يجعل نفي النصر وعدًا مطلقًا، فأفاد الرفع أنهم لا يستقيم لهم أمر، وأنهم غير منصورين مطلقًا، قاتلوا، أو لم يقاتلوا، ولو جزم لتغير المعنى[3].

فغيرت حركة الإعراب من الجزم إلى الرفع لتنفي النصر عنهم، وتثبته للمسلمين على أي حال كانوا عليه، قاتلوا أم لم يقاتلوا، فإذ بالاحتراس يرفع القيد بحال القتال، ويجعله مطلقًا، ولولاه لفهم المعنى على غير وجهه، ولوقع اللبس، ولتوهم في الآية ما ليس منها.

الشاهد الثاني: الاحتراس لإثبات الأمر على اليقين لا الشك:

وذلك في قوله –تعالى–: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[4].

---

(١) سورة محمد: الآية ٣٨.
(٢) التحرير والتنوير، ١٩٠/٣.
(٣) ينظر: الكشاف، ٣١١/١، تفسير الرازي، ٣٤٥/٤، البحر المحيط، ٢٥٥/٣، اللباب، ٢٧٧/٤، روح المعاني، ٧٣/٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

أولاً: موطن الاحتراس: "**أَحْيَاءٌ**" فقد عدل بها إلى الرفع، وكان الأصل أن تنصب على أنها معطوفة على "**أَمْوَاتًا**" كمفعول ثانٍ للفعل "**تحسب**"، والعدول إلى النصب احتراس للمعنى، لأنها لو نصبت لكان الكلام على الشك لا التأكيد، لأن القارئ سيتوهم إعادة العامل فيصير المعنى "أحسبهم أحياء"، فعدل إلى الرفع ليرفع الشك، ويدفع التوهم، ويبني الكلام على التأكيد الرافع لكل توهم، المزيل لكل حسبان، إضافة إلى ما في الجملة الاسمية من دلالة ثبوت الوصف واستمراره.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: تعرض كثير من المفسرين إلى مقصد الاحتراس في هذا الموطن، وبينوا أن العدول إلى الرفع حفاظ على المعنى، فالنصب لا يجوز لأنه أمر بالشك، والأمر بالشك غير جائز على الله، ولا يجوز –كذلك– تفسير الحسبان بالعلم، لأن ذلك لم يذهب إليه أحد من علماء اللغة، ونقلوا اعتراض أبي علي الفارسي على الزجاج لما أجاز النصب على معنى: بل أحسبهم أحياء، رد عليه الفارسي بأنه لا يجوز التفسير على هذا المعنى، لأن الأمر يقين، فلا يجوز أن يحمل على الحسبان(١).

فإن قيل: إذا كان العدول إلى النصب احتراسًا للمعنى، فلماذا لم يغاير في قوله –تعالى–: **{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}**(٢)، يجاب عنه: بأن هذا ليس من عطف المفرد على المفرد، ليكون في حيز القول، والجملة معطوفة على "**وَلَا تَقُولُوا**" إضراب عنه، فصار المعنى: لا تقولوا كذا، بل قولوا أحياء، لأن المقصود إثبات الحياة لهم، لا أمرهم أن يقولوا في شأنهم أنهم أحياء، وإن كان المعنى صحيحًا(٣).

(١) ينظر: تفسير الكشاف، ٣٤٧/١، تفسير ابن عطية، ٤٢/٢، تفسير الرازي، ٤٧٢/٤، البحر المحيط، ٨٧/٢، روح المعاني، ١٢٢/٤، بتصرف.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٤.
(٣) روح المعاني، ٦٤/٢، بتصرف.

وعليه فإن العدول من النصب إلى الرفع حتى لا يقدر فعل يقتضي الشك، فاحترس فيه بتغيير حركة الإعراب لإثبات الأمر على جهة اليقين لا الشك.

الشاهد الثالث: الاحتراس دفعًا لتوهم المقارنة:

وذلك في قوله –تعالى–: {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا}(١):

أولاً: موطن الاحتراس {وَكَلِمَةُ}: فالأصل أن ترد منصوبة عطفًا على سابقتها، ولكن عدل بها إلى الرفع، ولو أتت منصوبة لأفادت أن كلمة الله أعلى من كلمة الذين كفروا، ولما كان هذا غير مراد في الآية لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفروا، بل وردت مرفوعة لإفادة العلو الدائم الثابت بخلاف علو غيرها الذي يدور بين العلو المؤقت أو علو حال دون آخر.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: تعرض بعض المفسرين إلى مقصد هذا الاحتراس القائم على تغيير حركة الإعراب، وحاصل كلامهم: أن تغيير حركة الإعراب إلى الرفع أبلغ وأوجه، فليس الهدف إثبات علو كلمة الله على غيرها، ولذلك لم يقل "وجعل" في الجملة الثانية، لأن كلمة الله في ذاتها عالية ثابتة بدون جعلها كذلك في حالة معينة، فأفاد الرفع أن كلمة الله عالية في نفسها، ودفع توهم أن المراد إثبات علو كلمة الله على غيرها(٢).

ويساند هذا الرفع التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، ولما كانت كلمة الكفر ليس لها هذا الثبات والعلو، وإنما هو علو مؤقت، ناسبها الإخبار بالجملة الفعلية، واحترس بالعدول إلى الرفع في "**وَكَلِمَةُ اللَّهِ**"، وعبر بالجملة الاسمية، وأتى بالضمير "**هِيَ**" لتأكيد الإسناد بتكراره، فإذ بتغيير حركة الإعراب يفتح بابًا من

(١) سورة التوبة: من الآية ٤٠.
(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ٤٤٣/٢، فتح القدير، ٢٥٦/٣، التحرير والتنوير، ٢٩١/٦، الوسيط، ١٩٥٦/١.

أبواب الإعجاز البياني الحامل على الدهشة، مع التأمل، مع اليقين أنه كلام رب العالمين.

الشاهد الرابع: دفع توهم التسوية بين فعلين:

وذلك في قوله –تعالى–: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ}(١).

أولاً: موطن الاحتراس: "**سَلَامٌ**"، فكان الأولى أن ترد منصوبة عطفًا على سابقتها، ولو وردت كذلك لتوهم التساوي بين السلامين، فإذ بتغيير حركة الإعراب في "**سَلَامٌ**" تدفع هذا التوهم، وتقطع بأن تحية إبراهيم –عليه السلام– كانت أبلغ، لأن الرفع في الجملة الاسمية يفيد الثبوت والاستمرار.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: تعرض بعض المفسرين إلى مقصد الاحتراس المتمثل في تغيير حركة الإعراب في "**سَلَامٌ**"، حاصله: أن الرفع أبلغ، وأفاد أن الخليل حياهم بأحسن مما حيوه به، لدلالة الرفع على الثبوت والدوام، مع ما أفادته الجملة الاسمية، فكان الرفع أبلغ وأوجه(٢).

فالكلمتان "**سَلَامًا** – **سَلَامٌ**" متماثلتان، ولكن حركة الإعراب دفعت توهم المساواة بين السلامين، فسلامًا: المنصوبة يقدر لها فعل، أي: نسلم عليك سلامًا، فأفاد التأكيد، أما الرفع من الخليل –عليه السلام– فأفاد الثبوت والدوام فكان أبلغ، مع ما فيه من دفع توهم المساواة.

الشاهد الخامس: الاحتراس للتفرقة بين جواب المقر والجاحد:

وذلك في قوله –تعالى–: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}(٣)، هذا في جانب الجاحدين، وبعدها بآيات في جانب المقرين يقول –سبحانه–: **{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا}**(٤).

(١) سورة هود: من الآية ٦٩.
(٢) ينظر: البحر المحيط، ١٣٨/١٠، تفسير ابن كثير، ٣٣٢/٤، روح المعاني، ٢٩٨/٨.
(٣) سورة النحل: الآية ٢٤.
(٤) سورة النحل: من الآية ٣٠.

أولاً: موطن الاحتراس: تغيير حركة الإعراب في "**أَسَاطِيرُ**" فإنها لو نصبت –كما في جواب المقرين– لتوهم أنهم اعترفوا بالإنزال، ولكنهم أنكروا الإنزال والقرآن دفعة واحدة، فإذ بالتغيير في حركة الإعراب، والعدول من النصب إلى الرفع يدفع هذا التوهم، ويبين أن الكفار اعتبروه أساطير الأولين فلم ينزل منه شيءٌ.

ثانيًا: المفسرون والاحتراس: للمفسرين دور بارز وبديع في دور هذا الاحتراس المتمثل في تغيير حركة الإعراب في "**أَسَاطِيرُ**"، حاصله: أن النصب في جهة المؤمنين أبلغ، والرفع في جهة الكافرين أبدع.

فالمؤمنون سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يترددوا بأوجز بيان وأجمعه وهي كلمة "**خَيْرًا**" المنصوبة، الشاملة لكل خير في الدنيا والآخرة، ونصبها على أنها معمولة لـ "**أَنْزَلَ**"، أي: أنزل خيرًا، فكان النصب فيهم أبلغ.

أما الكافرون لو نصبوا "**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**" لكان المعنى: أنزل أساطير الأولين، فيكونون مقرين بالإنزال، فحادوا عن الجواب على مقتضى السؤال، ودفع الاحتراس هذا التوهم، والمؤمنون جاوبوا على مقتضى السؤال فقالوا "**خَيْرًا**" فحصلوا المطلوب وزيادة(١).

وعصارة القول:

- إن أدق أوجه الإعجاز البياني في تراكيبه بتغيير حركة الإعراب، إذ تشتمل على طرائق فريدة ومتميزة تجمع بين دقة المعنى، ودفع التوهم، وتعدد المعاني، وثراء النص.

(١) ينظر: تفسير الطبري، ١٩٦/١٧، بحر العلوم، ٤٦١/١، تفسير ابن عرفة، ٥٢/١، البرهان، ٢٠٨/٣، التحرير والتنوير، ٣٧/٨.

- الاحتراس بتغيير حركة الإعراب يدفع اللبس عن المعنى من أي جهة يريد أن يتطرق إليه منها.

- أي تغيير في حركة الإعراب لا يفسر على أنه خروج عن الأصل، لأنه عند التعمق يتبين أنه احتراس للمعنى، يدفع التوهم عنه، ولولاه لفهم المعنى على غير وجهه، وهو بحق من أدق أنواع الإعجاز البياني الذي يحتاج في الكشف عنه إلى ملكات تفسيرية وبيانية خاصة خدمة لكتاب رب العالمين.

الخاتمة

أقف في نهاية هذا البحث –الذي أسأل الله له القبول– مع أهم وأبرز ما توصلت إليه من نتائج، أجملها فيما يلي:

- الاحتراس القرآني من أدق وأبدع وجوه الإعجاز البياني، ولون من ألوان البديع.
- الحاجة ماسة إلى ضبط المصطلحات وتحريرها لسلامة الفهم، ودفع الإيهام.
- الاحتراس والاحتراز والاحتياط نظائر لمعنى واحد عند البلاغيين، وكذلك المفسرين، وهي ألفاظ دالة على حفظ الكلام وصونه عن التوهم.
- قد يطلق التتميم ويراد به الاحتراس، وقد يراد به فضلة تذكر في الكلام لنكتة.
- المعنى قبل التكميل صحيح تام، فيأتي التكميل فيحسنه، أما التتميم فيتعلق بتتميم بعض المعنى، والاحتراس: يدفع ما قد يتوهم فيه.
- الاحتراس: ما يحترس له وقت العمل، أما الانفصال: فلا يفطن له حتى يدخل عليه، فيأتي بجملة تنفصل عنه تدفع هذا الدَّخل.
- التداخل التام عند المفسرين بين مصطلحات "الاحتراس، التكميل، التتميم".
- اهتمام المفسرين بالاحتراس القرآني يدور بين ثلاثة أمور: الاهتمام بمقاصده وأغراضه دون ذكر المصطلح، أو مع ذكره، أو بمرادفه.
- لا يخل تفسير من الاعتناء بالاحتراس القرآني، لما له من أثر بالغ في دفع التوهم عن المعنى، ودوره البديع في الإعجاز البياني، إلا أن أكثر المفسرين اهتمامًا به إمامان هما: الألوسي، والطاهر بن عاشور، وذلك لعنايتهما بالبلاغة القرآنية كمدخل رئيس للتفسير.

• الأولى أن نستخرج تعريفًا للإعجاز البياني من كتب المفسرين أنفسهم، حاصله: أنه إعجاز في النظم تتلاحم فيه الألفاظ، وتتآخى فيه المعاني، مع مطابقتها لمقتضى الحال.

• للاحتراس القرآني دور بياني في عمق الدلالة، وخفة اللفظ، وحسن الوقع، والسبك، والمناسبة مع السياق، وثراء اللفظ، وجرسه، ودقة تصويره، والإخبار بالألفاظ اللطيفة، والميل عن الألفاظ المستقبحة، مع ما فيه من الجرس الموسيقي والتآخي بين الكلمات.

• للاحتراس القرآني دور بديع في حسن اللفظ، والتأثير على المتلقي، فهو أداة بيانية تحمل على التأثير، مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

• للاحتراس القرآني دور بياني بديع في دقة الكلمة، وائتلاف الألفاظ وتآخيها، ووقوعها موقعها، حتى إن القارئ ليشعر أن الكلمات من وادٍ واحدٍ.

• للاحتراس القرآني دور بياني بديع في التآلف بين المعاني، والتوازن، وجمال التعبير بلا تكلف ولا تعسف.

• إذا كان الاشتراك لفظة تحمل معاني متعددة، فإن الاحتراس يرفع هذا الاشتراك، ويحدد المعنى المراد، ويدفع ما قد يتوهم فيه.

• للاحتراس دور بديع في الجمع بين الآيات، لتكامل المعنى، ودفع التناقض، كما أن له دورًا في نفي الاختلاف عن المعنى، ورفع اللبس عنه، وتقريبه للفهم.

• للاحتراس دور بالغ في دقة التصوير، وهو أعلى مراتب البيان.

• إذا كانت الفاصلة القرآنية نوع من الإعجاز البياني، لما لها من إفهام المعاني، مع مراعاة المناسبة في الآية، مع ما فيها من اعتدال نسق الكلام، وحسن موقعه، فإن الاحتراس في الفواصل زادها إعجازًا وتأثيرًا، لما حقق من المناسبة،

والجرس الموسيقي، وبيان المعنى المراد، ودفع التوهم عنه، والتوافق بين الألفاظ والمعاني، مع ما حقق من التمكين والتوشيح، والإيغال، والتصدير.

- الاحتراس في الفواصل لا غنى عنه للمفسر، إذ به يستطيع ترجيح معنى على آخر، مع إزالة ما يلحق بالمعنى من إشكال.

- للاحتراس دور بالغ في الحبك القائم على علاقة الإجابة على سؤال مقدر، وهو من أعلى درجات الإعجاز البياني.

- إن العدول القرآني من صيغة إلى أخرى، لاسيما العدول بتغيير حركة الإعراب، من أدق أنواع الإعجاز البياني، يحتاج إلى دراسات متأنية للكشف عن أوجه إعجازه ببيان وتفصيل، إذ به يعدل من صيغة إلى أخرى مراعاة للمعنى، ونفيًا للسببية، ولبيان الأوغل في التعريف، والعدول مراعاة للمقدر.

- إن الاحتراس بتغيير حركة الإعراب أدق أنواع الإعجاز وألطفها بيانًا، إذ به يفرق بين مطلق المعنى ومقيده، وبه يثبت الأمر على جهة اليقين لا الشك، ويدفع التوهم في المقارنة، ويدفع التسوية بين فعلين، ويفرق به بين الجوابين، إنه إعجاز بياني يجمع بين ثراء النص، وتدفق المعاني، إنه إعجاز يحتاج إلى كشف وبيان، وهو هدف هذه الدراسة، خدمة لكتاب الله، وتعميقًا لملكات الباحث، والوقوف على الأدوات البيانية التي تفيد الباحثين عامة والمتخصصين في علم التفسير خاصة، لتصل بالمتخصص إلى حسن الفهم، وعمق التأمل، ودفع التوهم عن المعاني، والوقوف على أوجه الإعجاز البياني للاحتراس، التي ما كان لي أن أتعرف عليها لولا فضل الله أولاً وهذه الدراسة ثانيًا.

أهم التوصيات:

- ضرورة العناية بالأساليب البلاغية، وبيان علاقتها بالتفسير، وأهميتها للمفسر، وإخراجها في بحوث مستقلة، ذات طابع تفسيري، لتنتفع بها المكتبة الإسلامية.

- ضرورة الاهتمام بدراسات تكشف عن أوجه الإعجاز القرآني التي لم تنل دراسة الباحثين، لاسيما ما يتعلق بالإعجاز التركيبي، فإن النص القرآني يضفي عليه أنوارًا وإعجازًا وتأثيرًا، تظهر بهذه الدراسات أوجه جديدة ومتنوعة للإعجاز القرآني الذي لا ينتهي عطاؤه ولا مدده.

- أوصي –كذلك– بدراسات متأنية ومتنوعة عن الإعجاز بتغيير حركة الإعراب ودوره البالغ في المعنى القرآني، فإنها دراسات مع أهميتها، وبالغ خطورتها، ما زالت بكرًا في علوم التفسير، فما أحوجنا إلى البعد عن الأبحاث المتكررة، والتوجه إلى دراسات وأبحاث تزيد البحث جمالاً وثقلاً، والباحث تعمقًا وتمكنًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- إتقان البرهان في علوم القرآن، د. فضل حسن عباس، الناشر: دار الفرقان، ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.
- الإتقان، السيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م، الطبعة الثالثة.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤١١هـ.
- أساس البلاغة، الزمخشري، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.
- الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية، د. محمود شاكر إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي.
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، أ. د محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية.
- إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، الناشر: دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٤م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ.
- الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ.
- إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، الناشر: دار ابن كثير، ١٤١٢هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، الناشر: مطبعة النعمان، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع، الناشر: نهضة مصر.
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، الناشر: دار الكتب العلمية.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- البلاغة العربية، عبدالرحمن بن حسن حبنكة، الناشر: دار القلم، دمشق.
- بيان إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي، الناشر: دار المعارف، القاهرة.
- البيان والتبيين، الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، الناشر: دار الهداية.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر.
- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
- تفسير ابن عرفة، لابن عرفة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م.

- تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الناشر: دار الكتب العلمية.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- التفسير الكبير، الطبراني، الناشر: دار الكتاب الثقافي.
- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٥هـ.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبه الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني الخطيب، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر الجزائري الدمشقي، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ.
- جمهرة اللغة، ابن دريد، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ابن عرفة الدسوقي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، القونوي، دار الكتب العلمية.

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر البغدادي، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم المطعني، الناشر: مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ.
- الخصائص، ابن جني، الناشر: دار الهدى، الطبعة الثانية.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الإسكافي، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، الناشر: المكتبة العصرية، ٢٠٠٨م.
- ديوان الفرزدق، الناشر: دار صادر، بيروت.
- روح البيان في تفسير القرآن "تفسير حقي"، إسماعيل حقي البروسوي، الناشر: المطبعة العثمانية، ١٣٣٠هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- سر الفصاحة، أبو محمد عبدالله بن سنان الخفاجي الحلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
- شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري، دار القلم، بيروت.
- شرح المفصل، ابن يعيش، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

- شروح التلخيص، القزويني وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية.
- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة الأولى.
- الصحاح في اللغة، الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية للطباعة.
- عقود الجمان في علم المعاني والبيان، السيوطي، الناشر: دار الإمام مسلم، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ.
- العين، الخليل بن أحمد، دار ومكتبة الهلال.
- عيون التفاسير، شهاب الدين السيواسي، دار صادر، ١٤٢٧هـ.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- فتح القدير، الشوكاني، الناشر: دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، الناشر: دار العلم والثقافة، القاهرة.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، الناشر: عيسى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ.

- الكتاب، سيبويه، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- الكشف والبيان، الثعلبي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ.
- الكليات، الكفوي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، دار الكتب العلمية.
- لسان العرب، ابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- لهجات العرب وامتدادها إلى العصر الحاضر، د. عيد الطيب، الناشر: دار القاهرة.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- محاسن التأويل، القاسمي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر الرازي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ.

- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، الناشر: عالم الكتب.
- المستصفى، أبو حامد الغزالي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- معالم التنزيل، البغوي، الناشر: دار طيبة، ١٤٠٩هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الأولى، ١٤٠٨هـ.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.
- مفاتيح الغيب، الرازي، الناشر: دار الفكر، ١٤٠١هـ.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، الناشر: اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ.
- مناهل العرفان، الزرقاني، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، د. محمد عبدالله دراز، الناشر: دار القلم.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

- النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، الناشر: دار القلم، الأولى، ١٤١٥م.
- الوسيلة الأدبية، د. عبدالعزيز الدسوقي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.